عبد العزيز غرمول

مكتبة نوميديا

زعيم الأقلية الساحقة

رواية

دار الفصبة للنشر

زعيم الأقلية الساحقة

© دار القصبة للنشر 2005
تدمك : 0 – 534 – 64 – 9961
الإيداع القانوني 2005 – 1143
حقوق الطبع محفوظة للناشر

زعيم
الأقلية الساحقة

رواية

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر

1

كنت ملك الجزائر وما والاها من الضواحي. أحكم مملكتي بالقوة والعبث. أمشي في أسواقها مختالا، على رأسي تاجي وفي يدي صولجاني، محاطا بحرسي، اثنان يسيران أمامي لشق طريقي في حمإ الحياة، واثنان ورائي لحمايتي من ضغينة الحساد. يتدافع الناس في الشوارع للتبرُّك بتقبيل يدي، وتُفرش لي الطريق بالعطايا والدعوات... وحين ألقي مرساتي في حانة أو مطعم تتسابق رعيتي لدفع حاجتي... كنت أغناهم بقوتي وعبثي، ولكنهم يدفعون ثمن رغباتي عن طيب خاطر.

عرفت في الحياة أعاليها وأسافلها، صعدت وهبطت، ذهبت بعيدا إلى حدود الحلم، وانكفأت أحيانا بيأس على نفسي... الدنيا أحوال! وفي كل الأحوال صنعت نفسي بيدي كما ينبغي لملك ينتظر من رعيته أن يلعنوا صورته في سرِّهم، ويعلقوها في براوز على جدرانهم أو سلاسل ذهبية برقابهم...

لا يغرَّنكم أبدا مظهري، فأنا لست صنيع ملابسي وهندامي، أنا صنيع يدي... ويدي بما كسبت!؟

هذه هي قاعدة حكمي وقناعتي في الحياة : كلما كانت يد الرجل طويلة كلما كانت ضربته قاصمة!؟

يقولون أن الله وهبني يدا تصطاد السمك من أعماق البحر وتشويه مباشرة على الشمس... لكنني لا أصدق ذلك، فيدي صنعتها بيدي، واستخدمتها دائما بشكل يليق بيد تحترم قوتها وعبثها.. اصطدت بها حيث يجب، وشويت على صهدها خصومي وأغذيتي... وانتهت هي بفضل مواهبها الاستثنائية إلى إعادة صناعتي... توَّجتني ملكا ثم أصبحتْ تحكمني... أصبحت كلِّي: وجهي، وهندامي، وأفكاري التي بفضلها أميز خصومي وأضربهم!؟.

لقد تعلمت في هذه الحياة أن اليد التي تمنح هي نفسها التي تذبح وهي نفسها التي تُقبَّل... اليد هي كل شيء في الإنسان، أما أعضاؤه الأخرى فهي مجرد رعية في مملكتها... لذلك تركت مظهري ليدي حين تشاء تنبسط كل البسط، وحين تشاء تلقي بي في الشارع رثا سائبا...

لكنني في كل الأحوال أفضِّل صورتي متواضعا، طيبا ونظيفا، يلهج الناس باسمي ويدعو لي كبار السن والمراؤون بطول العمر...

*

العمر... هو ما يدفعني الآن للإنصات إلى نفسي بهذا الشكل...

دون شك كانت دعوة أحد الزبائن مقبولة عند الله فأبقاني حتى الخامسة والثمانين، رغم مئات المسدسات التي صُوِّبت نحوي، وبضعة عشرة خنجرا، ومزهرية ثقيلة هبطت علي من الطابق الرابع ثانية واحدة بعد مروري... وبالطبع هناك بضعة حوادث مصطنعة في منعطفات الطرقات، إلى جانب أغذية سامة ووشايات لدى الشرطة وجباة الضرائب الخ...

لكنني في كل مرة استعملت حدسي ويقظتي كما يجب على ملك له أصدقاء ألداء وأعداء لا ينامون ليلا، ووصلت الخامسة والثمانين لاهثا، بأقل ما يمكن من رصاصات طائشة وجراح سيئة التصويب...

وها أنا أجلس إلى نفسي كما يفعل أي ملك محترم أمام حاسبة الحياة يجمع ويضرب ويطرح ويقسم خصومه ومعارضيه، ويبحث في معادلاته ودواله عمن أخطأه برصاصة لحسن الحظ، أو ذهبت قبضته هفوة لحنك مرافقه بدل حنكه، أو أخرجه خطأ من جيبه قبل أن يتعفن!.

تلكم أخطاء صغيرة ليست من شيم الملوك ولكنها من شيم الحياة...

إنه إنجاز عظيم أن يبقى الإنسان حيا حتى الخامسة والثمانين في بلد متوسط العمر فيه خمسة وخمسون يأسا وقنوطا، وأغلب رجاله يتعفنون وهم على قيد الحياة في أدراج الوظيف العمومي أو أدراج النسيان!.

بالطبع، حين يصل الرجل إلى خريفه يكفُّ عن النظر في المرآة. لقد تعلم أخيرا حكمة الماء، أن يرى نفسه في نفسه، ويرتب هندامه على صفحة بصيرته تماما كما يرتب البحر الهادئ ألوانه على صفحة السماء...

دائما بعد الثمانين، يجد الملك ما يكفي من الوقت كي يستعمل يده الطويلة لترتيب هندامه وضميره معا أمام مرآة رعاياه... فمن الأفضل أن يفتح الباب لضحاياه كي يُعنِّفوه قليلا ويضحك عليهم بدوره قليلا، قبل أن يسدل الستار ويخرج من الباب الخلفي للحياة.

أعرف أنه من الصعب تفهُّمي، لكنني لا أكتب كل هذا كي يفهمني أحد. أريد بكل بساطة أن أجمع أطراف مملكتي في يدي، وأن ألمس حدودها وأحدد بافتخار الطرق الجهنمية التي حكمتها بها. وأخيرا رؤية مدى ما تراه يدي...

إنني أكتب لنفسي كي أبصر نفسي، ربما بشكل أفضل، ففي الكثير من الأحيان تجتاحني تلك الفكرة الرهيبة التي تشعرني أنني أقف خارج الزمن، وأن أجيالا وأجيالا تولد على يدي وتموت على يدي، وكأنني هنا منذ قرون، منذ القرن الخامس أو السادس عشر، متعاليا في أزمنتي، أعبر السنين والأجيال بحرِّية مطلقة. كلما ولد إنسان في هذا المكان أول ما يفتح عليه عينيه هو أنا، وأول هواء يتنفسه يتنفسه من كرمي، وأول مصروف جيب يدفعه في حياته يدفعه لخزينتي... يكبر سعيدا إذا كان من فئة دافعي الضرائب، وشقيا إذا شق عصا الطاعة...

صحيح أنني قلت دائما بأنني لست معنيا بالتاريخ، أنا هنا بينكم على قيد الحياة - شكرا للمصادفة السعيدة - وبعدي فلتنمحي كتب التاريخ.

لكنني أيضا كملك مسؤول رأيت من جهتي أن من حق رعاياي علي أن أنقل إليهم الخبرات التي قتلتْ بعضهم وحولتْ حياة بعضهم إلى مجرد دافعي ضرائب، وربما البعض منهم بفضل سيئاته التي لا تُداوى عاش الجحيم في مملكتي... وأنا على كل حال فخور بالجميع، وأعترف بالرغم من صرامتي الزائدة، وكذلك يدي الطويلة عليهم، أنني تعلمت منهم الكثير: تعلمت من خصومي كيف يمكن للرجل أن يبقى حيا حتى الخامسة والثمانين في مثل هذا المكان غير الآمن مطلقا... وتعلمت من

رعاياي كيف تصبح الحياة ممكنة العيش بعبث لمجرد جبنهم وتملقهم...

الشيء الوحيد الذي سيحمدونني عليه، خصوما ورعايا معا، بعدما أموت وأبرد في قبري، هو ديمقراطيتي!

*

منذ البداية قسَّمت مملكتي إلى قسمين، مملكة الليل التي أنا سيدها وآمرها المطلق... وجمهورية النهار التي لا أتدخل فيها إلا بالقدر الذي يحمي مملكتي ويدعم صرح رصيدي وعبثي.

الشعوب - كما اكتشفت مبكرا - تنقسم إلى شعبين، شعب نهاري يعتاش على العشب والمشاكل، وشعب ليلي ينعم بفاكهة النهار وغفلته!؟

واعترف لكم أنني احترمت ببعض الخبث والشفقة أفكار شعب النهار التي لا ثمن لها، وتسامحت مع نظامهم الجمهوري ونزواتهم، فهم ينتخبون كل خمس سنوات رئيسا، ويُغيِّر الرئيس حكومته أحيانا خمس مرات في السنة، ولديهم دستور تتم صياغته وإعادة صياغته على مقاس رئيسهم، ولديهم أحزاب صاخبة وبرلمان وصحافة... إلى آخر الحكاية...

تلكم حياة النهار الفقيرة التي يتزاحم في طرقاتها الموظفون والبهائم والآليات من أجل تقاسم الميزانيات السنوية الشحيحة التي تتكرم بها حكوماتهم للحفاظ على سلطتها، وأنا لست معنيا بالانخراط فيها وتنظيفها وتنظيمها، ولا حتى تزييف انتخاباتها، إلا بالقدر الذي تضيف فيه شيئا دسما لرصيدي في البنك...

لذلك لم أحرم أبدا رعاياي الأعزاء من تلبية نزوات حكومات النهار بالذهاب إلى صناديق الاقتراع والانخراط في الأحزاب

والجمعيات المصنوعة تحت الطلب، والتصفيق بحرارة لمرور المواكب الرسمية أو الوقوف استعدادا لسماع النشيد الوطني تماما كما يقفون لمروري... بل سمحت عن طيب خاطر للصحافة التي اصطنعوها لتلميع صورهم النهارية بإشارات رمزية لسطوتي وعبثي في لياليهم الكسولة الآرقة...

ذلك طبيعي في الحكومات الديمقراطية التي اخترعها عصرنا للتغرير بالمواطنين السذج... فأنا أعتبر مسبقا أن قضاءهم مرتش، وسياساتهم مُزوَّرة، وكل ما يقال في صحافتهم مجرد كلام يفتقر للدليل المادي...

إنني متأكد من أنه لم يحدث أبدا في عملي المضني والرائع أنني تركت ورائي دليلا ماديا يطعن في مملكتي، تصرفت بحنكة وحساب دائم لقوانينهم وأحزابهم وصحفهم التي لا تبيع سوى أخبار الملابس الداخلية، وأشداقهم التي لا يملؤها علف الحكايات...

مهما يكن، أنا ملك يحرص على سمعته من الآثار الجانبية للمسكنات غير الكيماوية التي يبتلعها عصرنا للتخفيف من أوجاع الرأس كحرية الثرثرة التي يسمونها حرية التعبير، وحقوق الإنسان التي لا يرون فيها أبدا جانب الواجبات، وصخب الأحزاب في الصالونات المكيفة الهواء والأفكار...

تلكم نزوات حياة النهار المثخنة بالمفاسد والأخلاقيات والبروتوكولات المستعملة كالجوارب، وخاصة المريضة بالعناوين البراقة كالديمقراطية والشفافية والنزاهة وما إلى ذلك، لاستغباء شعوب النهار، والحفاظ على مكاسب الأقلية الحاكمة...

صحيح، سيتساءل البعض: هل يمكن اليوم في مثل هذه الظروف الدقيقة والخطيرة... و... و... التي يمر بها بلدنا كما يردد التلفزيون الحكومي دائما، أن يخترع شخص ذكي وفرح بنفسه مثلي مملكة في ليل جمهورية ديمقراطية شعبية دون أن يجد لهذا الحيوان الذي يسمى الديمقراطية معلفا جيد التموين؟..

الجواب عادي:

- نعم ... إذا أردت أن يسمن ثورك أعلفه ولا تحرث عليه!!.

سأتساءل أمام مرآتي:

- ما هي الديمقراطية في مثل حسابات حكوماتنا الشنيعة؟

- أن يفعل الإنسان ما يشاء وقتما يشاء؟

- بسيطة... ما دخلي أنا فيما يفعلون... ومتى؟

ما يهمني هو ديمقراطية الأوراق النقدية، والدخل الوحيد الذي اقترفه وأتدخل فيه هو رصيدي، أما الباقي فلدينا خدم محترمون ندفع لهم رواتب وامتيازات لتنظيف إسطبلات النهار؟..

وإذا كان بعض الناس مرضى بالصراخ في الشوارع والثرثرة والنميمة ونقل الأخبار وما إلى ذلك من توابل مرق حرية التعبير كما يسمونها، ما يضيرني في أنني أشجعهم مادام ذلك لا يؤثر على رصيدي بالبنك؟!

وليكن، قلت، تريدون نقابات وجمعيات مدنية ومظاهرات في الشوارع... و... و... هل ذلك سيجعل بصيرتكم أكثر عماء على رؤية الأوراق النقدية التي تَمرُّون عليها في طريقكم ولا ترونها؟ جيد ... أشجعكم وأتمنى لكم التوفيق...

سيقول لكم أكبر جباة الضرائب في العالم أن حرية الثرثرة لم تؤثر أبدا على قيمة العملات ولا مؤشرات البورصات، وأن العفو على مساجين الحق العام لا يثري كثيرا قائمة دافعي الضرائب وإنما المتهربين منها، وأن صانعي الفساد في الغالب هم المنتخبون عن طريق صناديق الاقتراع...

هذه الحقائق لا علاقة لها بميلادي في برج العبث، الذي افتخر باختراعه، إنها ككل الشرور الضرورية التي تقترفها مثل هذه الشعوب لإدارة ثرثرتها ونزواتها ورؤوسها الخفيفة، لكي تواري تخلفها وراء عناوين لامعة كجبهات الصلع...

الملك الحق هو من يستمع لعصره بانتباه، ويعرف بحصافة كيف يدير هذه الحوادث المتفرقة على صفحات الإشاعات، دون أن يتأثر رصيده في البنك...

*

فلسفتي في الحياة بسيطة وواضحة: المال هو مبنى الرجل ومذهبه في الحياة، أما الباقي فمجرد جعجعة بلا طحين!

أبدا لم أهتم في حياتي سوى برصيدي الذي ربيته ودافعت عنه بحزم ورأيت قامته تترعرع بين يدي حتى أصبح هو أنا وأنا هو، بل أصبح هو يدي التي أنفض بها قامات خصومي فتتناثر القطع النقدية من جيوبهم...

من أنا في نهاية الأمر دون رصيدي؟!

مواطن؟!.

يا للأسى، وكأنني أقول مجرد خلية بدائية في جسم الكون!..

الرصيد هو الذي يكسو هيكل الرجل لحما وحجما ويحوّل تلك الخلية البدائية الهائمة في جمهورية النهار إلى خلية حاذقة تشارك في تربية الأرصدة وكنز الأموال، ولم لا تطويع الشعوب الفالته من رقابة جباة الضرائب!؟

لعل الكثير منكم لا يزال يقيس قامة الرجل بالسنتيمترات، هذا خطأ شنيع اخترعته البيروقراطيات الحديثة لقياس جثث الرعاع الذين لا قامة لهم...

الرجل الحقيقي تقاس قامته برصيده، فكلما كان رصيد الرجل عاليا كلما احتاج الناس لرفع رؤوسهم كي ينظروا إليه...

بعض الناس في هذه الجهة من الأرض مثل أطالسة هيرودوت الذين تخيلهم يصطادون السمك بأيديهم من أعماق البحر ويشوونه مباشرة على الشمس!

غير أن البعض الآخر وهم طبقة الأغلبية لا يزالون في طور - الأميبيا - البدائية لهم خلية حية واحدة انقسمت على ذاتها لتلبية الحاجات الوضيعة في الجسد: الأكل والنوم والتكاثر كالأرانب والذهاب إلى المراحيض...

هكذا هي الطبقية في مجتمعنا واضحة ومحسومة... وعلى الرجل الذي يرغب في تغيير طبقته أن يهتم بتربية رصيده كما تربى الخنازير بالعلف والعراك...

قلت دائما عن سابق تجربة واطلاع أن الرجال معادن بعضهم من معدن الأوراق المالية والبعض الآخر من معدن ورق التغليف، ومن الطبيعي أن يرمي الإنسان ورق التغليف حالما تنتهي مهمته، أما الأوراق المالية فمن أجلها صنعت الخزائن الفولاذية وأجهزة

الإنذار الالكترونية، والحكومات المصطنعة، والحروب، والمزورّون، والموظفون الصغار الذين لا يحلمون أبدا بطبع صورهم على العملات النقدية...

وأخيرا الزعماء الذين لا يفعلون شيئا صالحا سوى علف الأرصدة وتسمينها لوقت الحاجة.

*

قلت: الحاجة...

أبدا ليست الحاجة هي دافعي الأول لارتكاب حماقة تكديس الأوراق النقدية... أنا شخصيا حياتي مدفوعة التكاليف مسبقا، آكل في أفخم المطاعم، وألبس من أفضل دور الموضات، وأسهر في بيوت المواعيد الأكثر تألقا وفجورا... لا يسألني أحد ثمنا ولاشكرا... على عكس ذلك يفرح الكل بتقديم الخدمات لي ويعتبرون تفضيلي لمحلاتهم شرفا يعلقونه كابتسامة مني على أكتافهم المحدودبة...

المال هو رأس الرجل ثم تأتي يده... اليد الطويلة الشبيهة بالحربة... صحيح، كل شيء متاح لي دون ثمن، لكن هواية كنز الأموال هي بالذات التي تجعل كل شيء دون ثمن...

في الحقيقة هواية تكديس المال لست أنا مخترعها، إنها هواية عريقة وشنيعة، مارسها وأتقنها كل ملوك الأرض، البعض رأى فيها السلطة وآخرون الحرية أو المجد، وآخرون صورهم المنحوتة عليها،، لكن الكل أصيب للأسف بعاهتها إلى الأبد!..

من جهتي لم أكن معنيا بالسلطة ولا بالحرية، فأنا لا أعرف في النهاية ماذا أفعل بهما... لكنني كنت أشعر بفرح شبيه بلذة الانتعاظ وأنا أضيف رزمة جديدة لجبال الأوراق النقدية التي

أكدسها في خزائني... وإذا كان المال قد جاءني بالسلطة والحرية حتى تحولتا بدورهما إلى رأسمال قوي يجلب لي أموالا أخرى فلأن المال يلد المال في هذا البلد، ولا علاقة لذلك بعبقريتي في علم الضرب والطرح والقسمة...

علي منذ البداية تنبيه رعاياي الأعزاء حتى لا يفهموني خطأ: أنا لست باحثا عن المجد... أنا باحث عن المال... المال فقط!؟ أما ما يترتب عن ذلك فتحصيل حاصل: السلطة والقوة والحرية والعبث و... و..!

حتى السعادة التي لا تزور، كما هو معروف، حديثي النعمة إلا نادرا كانت تتمسح بي كمراهقة تتمسح برجل فحل...

*

لا أعرف من قال أن السعادة هي أن لا نكون في حاجة لشيء!؟ هذا خطأ فادح... السعادة إذا افترضنا أنها موجودة، هي أن نكون في حاجة إلى شيء ونكافح من أجل الحصول عليه، حتى ولو دهسنا في طريقنا بعض الجثث... كأن نقول مثلا: أريد رأس فلان!؟ وتمر أمام مسدسات حرسه الشخصي وهي فاغرة الفم وتأخذ بخناقه وهو فاغر الفم حتى ينفصل رأسه عن كتفيه... ستشعر حينها أنك حققت السعادة التي تشفي قلبك...

صحيح أن الطريق إلى هذا المستوى من الراحة النفسية يحتاج إلى استقامة لا تعرفها طرقنا الملتوية، فليس من السهل صناعة الربيع بحديقة من الرؤوس الفارغة... لكن الملك مضطر للأسف إلى اختراع راحته على حساب الآخرين... دائما على حساب الآخرين... ذلك أن الراحة في البدء كانت موزعة بالتساوي بين سكان المملكة، لكن الملك بحكم الطاقة الهائلة التي يبذلها في السهر على حراسة ذوي النوايا السيئة، لا يمكن

له أن يرتاح إلا بنهش الراحة من رصيد الآخرين... فكلما كان مواطنوه أكثر شقاء يكون هو أسعد حالا...

من المعروف أن الشعوب المرتاحة زعماؤها أشقياء بالحفاظ على تلك الراحة!.. لذلك آليت على نفسي أن لا أترك لهم فرصة للراحة... أخذت بجدية مسؤولية قضم راحة الآخرين للتزود بوقود كاف وأنا في طريقي إلى العرش... كلما أنهكت أحدا انحنى لي كي أصعد على كتفيه خطوة أخرى إلى الأعلى... ومن الطبيعي في مثل هذه المعادلة أن لا أهتم بمن أدوسهم خطأ ولا حتى بأولئك الذين لا يعرفون الراحة بحكم شقائهم الروحي...

ربما سيشمئز بعض الأخلاقيين من فلسفتي، وهذا طبيعي بالنسبة لبشر يكتفون في حياتهم النهارية بالخبز والماء وبعض المرق والكدح. ولكن لو يطمع أحدهم بتغيير حياة البؤس هذه التي يعيشها ويخرج ليلا إلى شوارع مملكتي، سيرى بأم عينيه كيف أن هناك نوعا من البشر يعلفون الأوراق المالية كما تعلف الخنازير البطاطا الحلوة، ويقيسون قاماتهم الأطلسية بأرقام صكوكهم، ويوزعون الحياة على طبقتين: طبقة النهار التي تحرك الأموال وتكتفي منها بالخبز والماء وبعض المرق والكدح... وطبقة الليل التي تعيد ترتيب الأوراق النقدية في أرصدتها الفولاذية كي تنعم بحمايتها وبركتها...

الفارق واضح، وعلى الرجل الذي يريد أن يكون له مذهب مفيد في الحياة أن يتأمل هذه الفلسفة. ففي المحصلة النهائية في مثل حياتنا هذه إما أن يكون الرجل جابي ضرائب أو دافعها، ليس هناك حل وسط!. وقد اخترت عن سابق تجربة واطلاع

مهنة الجباية لأنها تجعل من محترفها القوي والعابث مثلي ملكا محترما في شوارع الليل...

إنني أعرف كملك أن هناك نوعين من البشر يخطف عقلهما المال: خفاف الرؤوس والطماعين!. كل قضايا الفساد يتميز أصحابها بهاتين الصفتين، وكل السجون في العالم تزدحم بهذين النوعين من الكائنات... لذلك درَّبت نفسي طويلا على وضع رأسي في مكانه الصحيح بين كتفي، وأخرجت المال من حاجاتي الحياتية... أنا أجمعه فقط، أما حياتي فأرتبها بأقل ما يمكن من مصروف جيب... بهذه الطريقة فقط قهرت المال وحولته إلى مجرد حارس شخصي أعامله تماما بقدر خدماته لي...

هنالك شيء علي أن أخبركم به قبل ختام هذا الفصل لأنه سيكون مقدمة وصيتي قبل خروجي من الباب الخلفي للحياة: لن أسمح لأحد أن يرث عرشي من بعدي ويستغل طيبة رعاياي الأعزاء... سأترك كرسي الملك في الساحة العامة وعليه يدي، هذه اليد الطويلة التي اشتهرت بها بينكم، والتي زهقت بها بعض الأرواح وبعض الأرزاق وبعض الخصي... فإذا ما اختلفتم وتعاركتم حول تفاهاتكم اليومية كالعادة، تقاضوا عندها وارضوا بحكمها... إلى أن يجيئكم ذات يوم فاسد كبير مثلي فيلبسها ويبدأ في ضربكم على مؤخراتكم السمينة...

سأكتب ذلك في وصيتي: الملك الحق لا يرضى سوى بملك حق يرث عرشه!

2

منذ البداية خططت عن سابق إصرار وترصد للاستيلاء على الحكم...

كانت المملكة تبدو أمامي يتيمة متروكة لذاتها يتلاعب شطار صغار بمكنوناتها من الذهب والأوراق النقدية والمتع الصغيرة،، تتوزع خيراتها الرشوة والبيروقراطية والمحسوبية والانتهازية وترسانة الأخلاق القديمة الفاسدة...

هناك عماء عظيم، جبال من التفاخر والتعاظم، وكذب مجاني، ثم هناك زيف شامل ونفاق ومعاملات فاسدة مضحكة، وبعض الثروات الطائشة التي لا تجد من يعتقلها...

كانت أرضا تمتد من الماء إلى الماء تحيطها الرهبة والخضوع والقوانين الصارمة الهشاشة... وكان على أيٍّ ملك يطمع في عرشها أن يواجه جيوشا من الأخلاقيين والجبناء ومحدودي المواهب وبعض التنابل الذين تركلهم في طريقك فلا يتحركون لمجرد الوفاء للمبادئ القديمة التي تربوا عليها...

كانت المرحلة الأولى هي الأصعب...

ففي مملكة متروكة لذاتها يبدو كل رعية وكأنه سيد نفسه... سيادة وهمية تافهة وثمينة في نفس الوقت، تسمح له بحراسة

نفسه من مزالق الانضباط الاجتماعي القديم، وتدفعه أحيانا للنهي عن الفحشاء والمنكر...

كانت جيوش المصلحين تنتشر في الشوارع بشكل مريع، كل رعية يتصور أنه يعرف الخير والشر تمام المعرفة، وكل رعية يتصور أنه الأب الروحي لهؤلاء البشر، وكنت أعرف أن أي اختراق لهذا المنطق، من هذا المكان وفي هذا الزمان، سيؤدي إلى مواجهات مع جمهورية النهار أنا في غنى عنها.

لذلك اخترت الوقوف في المكان الأقل إضاءة... هناك في العتمة يمكنك أن تحرك الضوء في المناطق التي ترغب في اكتشافها بحرية أكثر، وترى بشكل أفضل أولئك الذين لا يرونك بشكل أفضل... وستكون اللعبة من الفتنة بحيث تأخذك في تفاصيلها الرائعة والخطرة...

وككل ملك جاد قررت أن لا ألعب صغيرا ولا ألعب مع الصغار، انكببت بجدية على دراسة جغرافية مملكتي... نزعت الشعب الصغير والقطع النقدية الصغيرة وبعض الأتباع والقوادين والنواب وضباط الصف، من طريقي وانفردت بالأصح...

كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لي في البداية، لكنني سرعان ما هضمتها واعتبرت أن أشهر الناس بنظافة اليد في هذا البلد هم الذين يُسرِّحون منافذ المجاري، كما يقال، أي المخوَّلون رسميا بإطلاق النار على خصومهم، والمحميون بترسانة القوانين الجاهزة، والمحصنون بالشطارة والأتباع كبايات العثمانيين...

كانوا متعالين في أبراجهم عن أقوال السوء، وبعيدين تماما عن الأيدي الطويلة وعن إشاعات الصحف... وكان علي أن أفكر طويلا في السلاح الذي يمكن أن يجرد أرصدتهم من سمنتها الزائدة.

لذلك تعاملت ككل ملك جاد يريد عرشا بطريقة مشروعة: تحويل الحلم إلى لعبة ممكنة، وتحويل اللعبة إلى خطر محدق!..

تلك نظرية قيام وسقوط الممالك في كل العصور... يأتي رجل حالم من الشوارع السفلية للتاريخ ثم يقوم ببسط طموحه ونفوذه كلوحة شطرنج أمامه، يقسم الرعايا إلى بيض وسود، ثم يبدأ في إدارة اللعبة...

إنها لعبة ممتعة وخطرة في آن، تدمي الأصابع غير المدرَّبة، وتزلزل العروش غير المسلحة، وربما تقلب التاريخ رأسا على عقب.

وككل لعبة ممتعة فيها بيادق تموت وملكات تنتهك أعراضها وحصون تتهاوى وشطار ومغفلون و... وينتصر أخيرا الملك الذي يبقى واقفا.

الفارق البسيط بين المجد واللعبة هو أن الملك يلعب وحده والباقي كلهم خصوم مفترضون.

هذه النظرية البسيطة لا يمكنك أن تتعلمها في المدارس أو من الكتب الرصينة، بل في الشوارع الخلفية للتاريخ، حيث يتعلم أصحاب الهمم الفولاذية إدارة وإتقان مخاطر اللعبة تماما كلعبة الشطرنج، تلك اللعبة التي لا أدري من قال عنها أن البيض يأكلون السود والسود يأكلون البيض والقتيل الوحيد بينهما هو الوقت!؟

لقد تدربت طويلا ككل ملك على سلاحي وإستراتيجيتي قبل الانخراط إلى الأبد في صفوف السفلة.

*

لقد مجدت الطيش بين رعاياي بما فيه الكفاية، غير أن هناك كلمة مُكمِّلة اخترعوها هم ولا شبيه لها بين اللغات واللهجات الأخرى، إنها كلمة "رُجْلة" المشتقة من الكلمة النبيلة: رجل!... لكنها لا تحوي أبدا هذا المعنى، بل تجمع معان من نوع الادعاء، التكلف، التراجل والاسترجال... الخ، وهي تسمي بذلك الرجل الدَّعي الذي يعتقد أنه خصم جيد لكنه يتبول في سرواله إذا زأرت عليه. هذا النوع من الطائشين يسهل تجنيده لتخويف الرعايا بعد سيجارة حشيش أو كأسي نبيذ.

"الرجلة" تنتشر في المجتمعات المريضة بذاتها، تلك المجتمعات التي ترى نفسها أكبر مما هي عليه في الواقع، وبالتالي تدفع بإنسانها المتواضع الذكاء والعضلات بدوره إلى أن يرى نفسه أكبر من حجمه، وتجعله أشبه ما يكون بالقنفذ المهدد الذي يتعاظم بجسده الصغير المحدودب أمام حنك التمساح ويعتقد أنه يخيفه بذلك الانتفاخ.

فكرت كثيرا في هذه الفئة التي حافظت على حذلقتها الجميلة بعدم الذهاب كثيرا إلى المدرسة، والتي تتميز بخفة غير محتملة، وقررتُ توظيف مواهبها التافهة في تطوير صورتي الاجتماعية غير المتسامحة.

لا أعرف من نبهني إلى تلك القاعدة الثمينة: إذا أردت أن تأخذ بخناق الآباء حرض عليهم الأبناء!؟

أخذت بالنصيحة واتجهت مباشرة إلى حيث الطيش والرعونة والبذاءة... جندت جيشا من المراهقين المغفلين ذوي الأيدي والعقول الخفيفة وشرعت في اللعب... استهوتني في البداية كلعبة ممتعة ولذيذة .. ولكنها بمرور الوقت أصبحت جادة وقاتلة !..

كانت إستراتيجيتي محددة كالتالي: المرحلة الأولى هي ضرورة اختراع صورة معينة لرجل مرشح للملك بأكثر ما يمكن من أشداق وأقل ما يمكن من نبيذ وسجائر مغشوشة!

وكانت كتيبة " الرجلة " التي لا يعتد بها كثيرا تملك أشداقا جيدة الصنع، تقضي يومها كوكلاء الإشهار تعلن عن سلعة غير موجودة لكنهم مقتنعون كفاية بوجودها، مما يجعل جحافل العاطلين عن التفكير يصدقون الإشاعات ويقومون بدورهم بنشرها مجانا...

هناك مثل شعبي كانت تكرره علي دائما تلك التي تدّعي أنها أمي: اشتهر ونم!... وكانت تعني أن الشهرة تجلب الحظ وتجعل الناس يخدمونك بالمجان...

لكن النوم لم يكن هدفي كانت الشهرة، الشهرة التي ترصف لي طريق المملكة، وتجعل الناس يدفعون ضرائبهم لي عن طيب خاطر...

لقد وظفت في ذلك زبدة أخلاقيات هذا الشعب بشكل معكوس تماما، فمثلا كنت أعرف منذ البداية أن البطن الشبعان لا يقول للرأس غني، بل يقول له هل من مزيد! وأن اليد القصيرة لا يمكن أبدا أن تكون مسلحة بعين بصيرة !..

إننا إذا التفتنا قليلا للتاريخ سنجد أن حروب الجوعى لم تُوفِّر لهم أبدا طعاما أكثر، بل وفّرت ثروات أكثر للحكام وللأثرياء، وأن معارك تكديس المال يخوضها الفقراء لحساب الأغنياء وليس العكس، وأن جامعي الثروات كلما امتلأت إحدى خزائنهم يطمعون في ملء أخرى جديدة...

من قال أن بطون الخزائن تشعر بالشبع؟!

هكذا كانت تلك التي تدّعي أنها أمي، كلما ازداد الزبائن كلما طمعت في المزيد، حتى أن بعض بناتها الجميلات اللواتي لم يكنّ يغادرن غرفهن ولا يلبسن ثيابهن إلا للذهاب للحمام، كانت تفرح بوقوف صفوف من مشتعلي الخصي أمام أبواب غرفهن، وكانت كلما تتراكم في خزائنها الأموال كلما تتهرب أكثر من دفع الضرائب للرجال الذين يحرسون سمعتها الهشة كبيض الدجاج، وتتباكى أحيانا من شحّ الزبائن وندرتهم، وتضرب بناتها إذا طالبن بزيادة قليلة في رسوم أتعابهن...

ومن المعروف أن التأني مع الخصوم ليس فيه أي سلامة، وبقدر ما يكون الملك متعجلا بقدر ما يدفعون الضرائب في وقتها...

دفع الضرائب لا يتم بالأشداق المفتوحة كإسطبلات البقر، بل بالقهر المنظم. القهر الذي يجعل الإنسان المتعاظم لا يعرف أبدا من أين تأتيه الضربة على رأسه. إنه بطبعه لا يخاف أحدا حتى تُطيح به ضربة قاصمة، وبعدها يعود كالقنفذ إلى حجمه الحقيقي... وبالطبع لن نجد أفضل من أولئك " الرجلة" ذوي الأيدي والعقول الخفيفة للتسلل إلى جيوب الناس...

لذلك انتقلت بسرعة إلى المرحلة الأكثر حسما: اختيار الأكثر طيشا بينهم وتدريبهم على خفة اليد تماما كخفة ألسنتهم الطويلة... سلّحتهم بمسدسات لا تخطئ هدفها، وسميتهم كتيبة الشطار تيمنا بشطارتهم، واشتريت منهم رؤوس الناس حسب نسب ضرائبهم، ثم أطلقتهم في ليالي المملكة...

كانت كتيبة الشطار تتميز بخفة لا مثيل لها، وكان بإمكان أحد أعضائها، والذي لم يلمس مسدسا في حياته أن يشهره كلعبة في وجه إنسان يرى جيوبه منتفخة حتى ولو بأوراق الجرائد.

كانت كتيبة ذات تدريب سيء جدا، تطلق النار في كل الاتجاهات إذا لم تكن الشرطة في المكان... وتتشمم خطى الأوراق النقدية حتى وهي تعبر الأرصدة على ظهر الصكوك... وتخنق الموظفين الصغار حتى يتبول مدراؤهم في سراويلهم...

كان اختيارهم متعبا وممتعا في نفس الوقت، ففي النهاية هذا النوع من البشر الشبيهين بالطاووس في انتفاخهم وغرورهم، غير متوفرين كما يعتقد بشكل كاف في الشعوب الفاسدة، إنهم مثل البكتيريا، يختفون في الخمائر والأوساخ حتى يجدوا من يفتح لهم باب التغذية، وبعدها يتكاثرون بشكل يتحدى كل الأمصال والأدوية...

هذا النوع من الكائنات من الممكن تدريبهم بسهولة على استعمال السلاح وبعدها حرّشهم على خصومك دون أن تُزوِّدهم بما يكفي من المعلومات، وهم سيجتهدون في توريطهم بدون سبب... إنهم طائشون وهذا سلاح كاف للقتل...

المجتمعات هكذا، كل شخص ودوره الذي ولد من أجله، وبما أن الانفجار الديموغرافي أعطى بشرا دون أدوار فمن الممكن للمرشح لأي مملكة أن يجندهم في أدوار لم يولدوا من أجلها، لكنهم يؤدونها بتفاخر وحماس لا مثيل لهما، حتى ولو كسروا في طريقهم كل ما هو قائم...

*

كانت الخطة واضحة أمامي: طرد كل أولئك الذين لا يملكون سوى مصروف الجيب من مملكتي، ثم الانفراد بالأرصدة السمينة...

من الطبيعي أن تسلق طريق مملكة لا يحتاج إلى سلم ولا إلى مواهب القردة في التشعلق على أغصان الأشجار، وإنما الصعود على أكتاف الآخرين...

الملوك الذين بنوا إمبراطوريات مالية تميَّزوا دائما بهكذا ذكاء: استعمال المادة الخام الرخيصة والمتوافرة... أي الأكتاف المفتولة العضلات في أعمال السخرة!؟ وهي مادة أولية تتوفر بشكل معقول في الأمم المريضة بذاتها...

وكان الحل الممكن بالنسبة لي لاستعمالها بطريقة عبثية جيدة هي: تجنيد حثالة المجتمع وتدريبها على انتهاك عطالتها ومخاوفها بشكل لا مثيل له... ومن ثمة تحويلها إلى حاسة لمس وجس نبض... وبعد ذلك أداة خنق...

صحيح أن رعاياي اخترعوا مصطلحا ذا دلالة هزلية رائعة هو مصطلح "الحيطيست" الذي يسمي ويضحك في نفس الوقت على أولئك الذين يقضون سحابة يومهم يسندون حيطان الحارات بأكتافهم غير المستعملة، ويبحلقون في مؤخرات العابرات، ويتشاحنون حول مقابلات كرة القدم... كائنات من نوع خاص لهم كل المؤهلات البشرية باستثناء موهبة صنع المال... وكان علي أن أجد منفذا لرؤوسهم الفارغة كي استثمرها في ما لا تحمد عقباه...

لذلك علينا أن ننبه هنا إلى أن الحثالة في الحقيقة ليست مجرد بشر بلا رؤوس، إنهم أيضا أطماع ونزوات وبطون لا يقهرها الشبع... وعلى الملك أن يفهم بعض التفاصيل كي يستثمر أدمغتهم السيئة الاستعمال ويُؤجِّج فيهم أحلاما أعلى من أيديهم القصيرة...

بالطبع ستكون القاعدة الأولى في مثل هذا البرنامج هي تغيير أدوار اللاعبين، فإذا استطعت أن تقنع سافلا بمواهب لا يملكها

فأنت ملكته... وإذا أهديت طماعا مبلغا ماليا معتبرا يتنازل لك عن زوجته... وإذا ضربت أحد المتعنترين في الشوارع حد الموت فسيصبح حارسا شخصيا لك... كل نذل وثمنه في عالم السفلة!..

هناك قانون عام عليكم معرفته: إذا كسر صبي الحانة عضلات معلمه وسامحه معلمه سينتهي إلى أن يصبح هو سيد الحانة... لكن الملك لا يسمح أبدا بهذا التجاوز، الملك يكسر عضلات صاحب الحانة أمام صبيه كي يصبح سيد الاثنين معا... وسيد الحانة بدون منازع...

الملاحظ أن هذه القاعدة تنطبق على الأفراد فقط، أما الجماعات فعلى الملك أن يتصرف معها بطرق أكثر خديعة وجمالا: بما أن الديمقراطية هي حرية الترشح والانتخاب، ضع حاجب البلدية الذي ربيته بعصاك على رأس قائمة المرشحين لرئاسة المجلس الشعبي البلدي، ثم اشتري الصحف وبعض الأشداق الكبيرة لتلميع ماضيه الوضيع، وبعد ذلك نظّم حملة انتخابية كبيرة لفرضه على الناخبين... أطبع أوراق نعم مسبقا ثم ضعها في صناديق جاهزة للتسريب، وانتظر...

دون شك سيعتبر المرشح في حد ذاته أن ذلك مجرد نكتة طريفة لا يمكن حتى للأرانب أن تصدقها، لكنه سرعان ما يصدقها هو نفسه أمام هتافات الجماهير المدفوعة الأجر...

أنت تعرف بالطبع أنه حالما ينجح ويتم تنصيبه سيتحول إلى فرعون صغير ينتقم بشراسة لوضاعة ماضيه... يبيع ويشتري كل ما تلمسه يداه... البشر هكذا وضيعون وطماعون بطبعهم... وأنت

تعرف أنه سيبدأ باستغفالك أنت سيد نعمته... الكلاب الجائعة تأكل أصحابها... إذن، ضع في المربع الأسود أمامه بيدقا يتصف ببعض الصلف والبلاهة كي يعيش رئيس البلدية الجديد حالة تهديد وخوف مستمرين... واصبر قليلا... فسينتهي به الأمر إلى حمل خزينة البلدية على كتفيه ويأتيك بها ليلا...

هذه هي سياسة الملوك... يقلّبون سلم القيم على رأسه فيسقط كل متسلقيه وتسقط من جيوبهم القطع النقدية التي يخبئونها بحرص...

بمثل هذه الأفكار النيرة وضعت الكل، متعالين وسفلة، على سطح اللعبة وبدأت في استبدال المواقع... أعطيت البيادق فرصة أكبر من مواهبهم، وتركت الحصون والأحصنة في الخلف، وفتحت مربعات مباشرة في وجه الملوك وأصحاب الثروات الطارئة لإشعارهم بالخطر الدائم...

قد تبدو هذه اللعبة سهلة وممتعة بالنسبة للبعض، لكنها في الحقيقة في غاية الصعوبة، ذلك أن جيشا من اللصوص والطماعين والانتهازيين والزناة والقحاب وبعض المجانين والأغبياء... لا يمكن تدريبهم بسهولة على الخضوع وزراعة الفوضى والشغب إذا لم تضربهم على مؤخراتهم.

هناك قاعدة حربية معروفة: الانضباط هو أول ما يتداعى في الحروب وبعده تنهزم الجيوش والحضارات... وقد وضعت من أولوياتي ضرب الانضباط على أليته بتحويل الأتباع والموالين وضباط الصف إلى أشخاص لهم شأن يستطيعون أن يبيعوا ويشتروا به،، ومن ثمة يخنقون رؤساءهم في العمل...

ما يترتب عن ركل الانضباط هو نشر فوضى خطيرة ورائعة تمكّن ذوي الأيادي الطويلة من غَرْف قطع اللحم من القدر مباشرة.

علي أن أشير هنا إلى أن صناعة الفوضى لا تقل أهمية عن صناعة الأسلحة، بل أن صناعتها من أخطر الصناعات على الإطلاق. وعلى الرجل الذي يراوده طموح الاستيلاء على المملكة أن يتعلم بهدوء كيف ينتقي بذورها الصالحة للفساد، ويطيح بهيبة السلّم الاجتماعي أرضا، وبعدها آليا سيركب الحمار صاحبه، كما يقال.

*

الفوضى، كما هو معروف، وصفة قديمة بها تبتدئ الممالك وبها تنتهي...

لقد أخبرتنا حكايات الأولين أن الممالك الشامخة لا تسقط بقصف الغزاة لجبهة الحرب ولا حتى قصف القصر الملكي، وإنما بإطلاق يد النهب والفوضى فيها... كل الممالك دون استثناء يدافع عنها أهلها مادام الملك واقفا معهم، يدافع وينافح مثلهم، لكنهم يستسلمون وينهارون تماما تحت سنابك الفوضى إذا اختفى ذاك الملك في جهة الحريم.

غير أن صناعة الفوضى تحتاج إلى بعض المواد الأساسية في الدول الحديثة النعمة. فأنت لا تستطيع أن تخرج للشارع وتكسر واجهات الحوانيت وتوقف سيارتك على الرصيف وتمشي في وسط الشارع بين السيارات... سيكتفي الناس بالقول: مسكين لقد أصيب بالجنون!؟. لكنك عندما تحشر أحد الجهلة المشهورين على رأس بلدية أو شركة عمومية أو محافظة شرطة كبيرة سيتكفل هو بذلك عن طيب خاطر...

ماذا يفعل حانوتي أو تاجر شنطة كوزير للاقتصاد؟ سيبيع الوزارة بالتجزئة... وهذا هو المطلوب...

الملوك على خلاف الآخرين يعرفون أن الجهل سيد المعارف وهو المادة الأساسية الصلبة لصناعة الفوضى... فكلما تسلق الجهل أكتاف الناس كلما افتقدوا الأرض الصلبة تحت أقدامهم ورأوا أنفسهم أكبر قليلا من حقيقتهم.

لا توجد معرفة في رأيي تستطيع أن تجعل الناس فوق مستواهم مثل الجهل، ولا توجد طريقة أفضل من الجهل لصناعة فوضى متقنة، ولذلك شجعت الناس دائما على التحلي به واستثمار محاسنه! فبالجهل وحده يمكننا ضرب الانضباط على أليته، وتسويق الكذب كمشروب روحي مسكر، وربما تسليف سلم القيم للجيران لتبييض جدران منازلهم...

مهما يكن علينا الاعتراف بالجهلة الرائعين الذين يمكن تجنيدهم دائما في ما لا تحمد عقباه!؟

قد يقول البعض أن هذه نظرية لا تنزل إلى الواقع... لكنها في الحقيقة هي واقع منظور إليه من فوق...

هنا تكمن عبقرية الشطرنج، مادام اللاعبون في أماكنهم وداخل أدوارهم فالكل يدافع عن الملك ويدفع روحه من أجل أن ينتصر في معركته... لكن حالما تأخذ البيادق مواقع وأدوارا أكبر من أهميتها حتى تعرض ملكها للخطر المحتوم!

الرعاع في الغالب يستمتعون باختراق النظام ويتنطعون دائما على الأعلى منهم، وينهشون بذلك شيئا فشيئا مجال أدوارهم... وهذا عظيم بالنسبة للملك الطامح: ادفع البيادق للتعنتر على

ضباطهم والاقتتال الواحد تلو الآخر حتى تتضرج رقعة الشطرنج... ثم أضرب خصومك على إلياتهم...

لكن من جهتي، وككل ملك محترم، أعاف أن أرفع يدي على رعية في مملكتي، لذلك اخترت دائما الحلول الحاسمة: الضرب بالمسدس مباشرة...

المسدس اختراع عظيم، ومن الأفضل تمجيده بين الناس كقاضٍ لا مثيل لصرامته بين اختراعات البشر، فبمجرد سحب الزناد إلى الخلف تنتهي مشاكلك مع خصمك!.. كل الألعاب الأخرى أقل قذارة ومجدا من مسدس جيد التصويب: سدِّد الماسورة صوب خصمك ثم اسحب الزناد إلى الخلف كما يفعل الأطفال بمسدسات رشق الماء؟!

الفارق الوحيد بعد ذلك هو أن البلل الذي تخلفه وراءك شهي ومجيد.

*

القتل، هو المهنة الوحيدة في الحياة القذرة والشريفة في آن. ليس صحيحا أن له لذة أشبه بلذة الجنس، كما يقول بعض علماء النفس المرضى، بالعكس هو المهنة التي يظل الإنسان فيها يشعر بالتقزز والاشمئزاز، لكنه يقوم بها بشكل عادي روتيني كما يقوم حارس مصلحة حفظ الجثث بنقل الموتى إلى جوارير الثلاجة.

ثمة إحساس غريب في هذه المهنة، هو عدم الإحساس بالذات. فحين تكون لاعب بيسبول أو الكرة الطائرة أو السلة، حين تقذف كرتك إلى الهدف تذهب مشحونة بمهارتك وحماسك، تلك القاعدة لا تنطبق على الرصاصة: أنت تسدد القذفة بكل ما تملك من إتقان وتوجس وتذهب القذفة المُلتهبة

إلى هدفها عارية من أي إحساس، ومهما كانت جيدة التصويب لا تشعر بعدها بأي سعادة...

كل القتلة المحترفون الذين لجأت إلى خدماتهم يتميَّزون بصفة مشتركة: الرُّعونة!... تلك الصفة الحميدة التي حرمتنا الأخلاق القديمة منها.

هاكم مثالا: لا يمكن لرجل سويٍّ أن يتخلص من أعدائه بسهولة، بل يحملهم على كاهله وقلبه، وربما ضميره، طويلا... وإذا لم يُخلِّصه الزمن أو الصدفة منهم فإنه من الممكن أن ينهار تحت ثقل جثثهم وقد تسحقه الأحداث... الرجل الأرعن أكثر حسما، يذهب إلى عدوه شاهرا كل أسلحته، وبعد ذلك ينام مرتاحا إما على وسادته أو في قبره، وفي الحالتين ينام مرتاحا!..

كان اختلافي الوحيد عنهم أن رعونتي مدروسة بشكل جيد ومحاطة بحرس أكفاء لإنقاذها من العواقب سيئة التصويب.

لقد واجهت خصومي دائما بقتلة طائشين بشكل لا يُداوى، محميا بغموض ووقاحة لا مثيل لهما. نسجت عن سابق إصرار وترصد قفازا حريريا ليدي الفولاذية، ونسجت لوجهي كذلك أقنعة كافية سحلت جلودها الناعمة من وجوه خصوم آخرين... لعبت دوري دائما بشكل يليق بالمناسبات الجماهيرية التي تستدعي شهود عيان ومعارك دامية. كانت قذفاتي لا تخطئ، وأي من الطرفين يسقط مضرجا بدمه، لا أكون أنا... أنا الذي يبقى واقفا، بارد المسدس والأعصاب، أترك ورائي غيمة من الإشاعات وأذهب... أذهب عاريا من أي إحساس أو سعادة... وسيتولى بعدها رتل القوادين والعاطلين مهمة تسخين الحكايات كما يحلو لهم أمام أحواش الحارات والأزقة والشوارع الخلفية المهملة...

ففي نهاية الأمر لا يمكن لقاتل نبيل مثلي أن يكتفي بالآثار المباشرة لعمل المسدس، بل عليه أن يوظف بشكل جيد الأشداق المفتوحة في مقاهي النهار وساحاته العمومية لأن طلقاتها لها تأثير على الخصوم الجبناء.

*

صناعة الإشاعات في الممالك الليلية فن ذو أهمية قصوى لا يقدر عليه إلا ذوو المواهب الضحلة والمحدودة حقا.

أنت تستطيع بإشاعة جيدة الصنع، تتناقلها المدينة من أقصاها إلى أقصاها، أن تقصم ظهر خصمك، حتى ولو كان يدعي نظافة اليد مثل وزير العدل...

ماذا نعني بإشاعة جيدة الصنع؟

أن تكون كالكذبة البيضاء غير صحيحة ولكن يتعذر التحقق منها أو حتى إدانتها...

خذ مثلا الفضيحة المخجلة التي لحقت وزير العدل حين رفض رفع الحجز عن شركات خادمنا المسكين الحاج كشكول لمجرد أنه كان يتهرب من دفع الضرائب لحكومات جمهورية النهار. سيقول الحاج كشكول على مسمع من صحفيين كانوا يؤمون حانة منتصف الليل:

- هذا البغل الذي جلبوه لتوزير العدالة يريد أن يجرجرني في التزوير... من أين أعطيه رشوة بمليون دولار وهو لم يرفع الحجر على أرصدتي في بنوك الحكومة!؟

عندما استقرت الفكرة في رأس أولئك الأنغال بالطاولة الجانبية، واصل بصوت مسموع ترصيع كذبته البيضاء: هو يظن أننا لا نعرف أنه فتك بعرض تلك الشهلاء البلهاء ذات الأربعة عشر جحيما، مقابل تتويج خالتها الحاجة قمير بوسام الاستحقاق من

الدرجة الأولى لمساهمتها الجليلة في تحرير البلاد من المستعمر... وبعد صمت أضاف ساخرا: طبعا، كانت من المجاهدات القديمات اللواتي حاربن الجيوش الجرارة بسوآتهن...

ونظر جانبيا للصحفيين:

- رجاء... هذه ليست للنشر...

وواصل تجاذب أطراف الحديث مع نغل كان معه دون اهتمام كبير بالدخان الذي ارتفع على مسافة طاولتين من مبسط الحانة.

ومثل عقب سيجارة مرمية بإهمال على كومة من القش أصبحت الإشاعة على الصفحات الأولى للجرائد وفي كل فم في المدينة واحترقت ملابس الوزير على جسده...

في الماضي كنت أقول: ضع عاهرة بريئة في طريق أي من هؤلاء المحترمين وهي تتكفل بجرجرته في البيوت السرية حيث آلات التصوير تتلصص على مؤخرته العارية، وبعدها ستكون لديك قذيفة على شكل فيلم فيديو أو ألبوم صور يمكنك تهديد خصمك بها حتى تفرغ خزائنه، أو في أسوأ الحالات أترك الإشاعة تأخذ مجراها في الأفواه الشبقة وانتظر أن يأتيك بنفسه دامع العينين طالبا الغفران...

لكن الحاج كشكول بأنف الكلب الذي وهبته له طبيعة ابن الحرام الذي كانه، دمر الرجل بإشاعة لا يمكن التحقق منها أبدا، وفتح الباب على مصراعيه للصراعات التي يتعذر التحكم في عواقبها الرسمية...

فكرت طويلا في تخصيص وزارة كاملة لفن الإشاعة... هذا الفن السخيف والجميل في آن، والذي يمكنك أن تدمر به خزائن

الحكومة، لكنني استبعدت الفكرة بسرعة لأن الأمم ضحلة الرؤوس هي كلها مجرد وزارة لنشر الإشاعات، لذلك اكتفيت بدفع رواتب الأشداق الكبيرة، وتركت الباقي عليهم.

لهذه المعطيات فقط لم يحدث أبدا أنني تركت الموت يمر دون عرس...

كنت مثلما أعدُّ وأنظف أسلحتي، أعد وأنظف حفلة الموت بأناقة وهدوء... أختار شهودي من بين أكثر الناس جبنا وثرثرة لإضفاء الغرابة والتعظيم على حكاياتي المشاعة بين الناس، وأمثّل بهم كما كان يفعل الملوك الانكشاريون في القرون الوسطى، أجرد خصمي من كل شجاعة يتحلى بها بالسخرية منه، وأسحق خصيتيه أو جمجمته بين أصابعي الفولاذية حتى يدفع ضرائبه على آخر سنتيم.

المفارقة الدقيقة التي لم يفهمها خصومي أبدا هي أنني لا أطلب الانتصار ولا حتى العبرة من حفلات القتل هذه بل أطلب الخوف... الخوف في النهاية هو الحاكم الحقيقي للشعوب.

كل ملك لا تخافه رعيته تتبول عليه!. إنني ممن يعتقدون أن زراعة الخوف، على عكس زراعة القمح، تجعل الشعوب مطيعة وراضية!!

لقد اعتبرت دائما أن الخوف مثل الخبز لا يفعل فعله في الإنسان إلا عندما يصبح داخله... الفرق بين الخوف والخبز هو أن الكثير من الخبز يبطر الإنسان ويجعله يتفرعن، أما الكثير من الخوف فإنه يحشر الإنسان في حجمه الحقيقي كدافع ضرائب لا يتأخر. لذلك وضعت كل رعاياي أمام فوهة المسدس وتأهبت للتسديد.

في المرات القليلة التي أخطأت فيها خصمي اعتبرت ذلك هدية متواضعة مني. لقد أخطأت دائما هدفي عن سابق إصرار وتصميم فبعض الخصوم يحتاج الملك لخدماتهم فيما بعد، ومن الأفضل أن يكتفي بثقب أذنه بدل جمجمته ثم تكليفه بمهام على حساب هذه الهدية المتواضعة، الشرط الوحيد في مثل هذه اللعبة هو أن يكون خصمك طائشا بشكل غير معقول، ويتمنى قتلك، وبعد ذلك سيجني على نفسه ويموت تحت وطأة الوهم بالانتصار على الموت.

*

قبل أن أختتم هذا الفصل علي أن أخص ببضعة أسطر ذلك اللقاء الرائع والرهيب في نفس الوقت بالمسدس، ليس تمجيدا للخدمات الجليلة التي أداها لي فحسب، وإنما تحذيرا من عواقب سوء تسديده، أو استعماله غير المبرر...

بالطبع كما هو معروف، لا يمكن في بلد مثل بلدنا مثلا أن يذهب الإنسان إلى دكان الحدادة ويقتني مسدسا على المقاس، ولا أن يعبر الشارع فيلتقي صدفة بمسدس يقول له: صباح الخير... أنا جاهز للاستعمال هيا هدد خصومك بي!؟. على الرجل أن يؤمن أولا بقدرات المسدس الخارقة وأن يكافح بجد لامتلاكه...

بالنسبة لي أول مرة رأيت المسدس أحببت شكله الشبيه بعضو حمار منتصب، كان مخيفا لكنه جميل. يبدو صغيرا لكن مداه أطول من أي يد. وكان الاكسلانس، كما تسميه تلك التي تدّعي أنها أمي، يثير به هلع الأطفال الذين يشاغبونه ويُعيِّرونه برجله العرجاء التي يقال أنه فقدها في معركة تافهة على طاولة النرد، لم يستعمل فيها بشكل جيد مسدسه... كان حالما يستله من حزامه نفرُّ إلى كل الجهات خائفين.

لم أكن من قبل أعرف أبدا معنى الخوف، لكنني أعرف أن عمي كعوان كما نسميه، رجل مجنون حسبما يحكى عنه، يتلذذ بأكل آذان خصومه ويفرز ماسورة مسدسه بين فخذي نسائه، ويطلق النار في الهواء لمجرد التعبير عن سعادته...

كان حيوانا غير أليف لا يبتسم ولا يخفض صوته إلا في دار تلك التي تدّعي أنها أمي... هناك يتحول الوحش الضاري الذي يعضُّ الناس في الشارع إلى كلب وديع يتمسح بتلابيب البنات المتناثرات على أرائك الصالون وهن يتهرَّبن منه كما يتهرب الناس من كلب مغلوث... كنت أتفرج عليه متشفيا: ابن الكلب هذا يقاد فقط من خصيتيه!...

سيقول لتلك التي تدّعي أنها أمي: أريد هذه البربرية البيضاء كحليب الماعز... سترد البربرية بغضب: اذهب إلى أختك!... لكن العجوز التي كانت قد مدت يدها إلى جيبه وأخذت محتواه، واتنزعت منه العصا التي يتوكأ عليها لكي لا يضرب البنت بعد أن يقضي وطره منها... ثم تستل المسدس من حزامه: لا تستغفلني أيها الوغد.. أنا من تطلق النار عليك ذات يوم!.. يضحك وهو يتوكأ على البنت ذاهبا معها إلى غرفتها: أنت أطلقت علي النار عندما كنت في الثامنة عشرة من عمرك... أما الآن أيتها العجوز الوقحة لا أضاجعك حتى بماسورة مسدسي!...

كانت الماسورة الشبيهة بعضو الحمار مرمية على الكومود وحدها باردة منتصبة... وكنت أتحين الفرصة لقصفه بها، لكنني كنت أعرف أنه بخبثه المعهود يحتفظ برصاصاتها في جيبه...

طيلة خمس سنوات وأنا أقف، أقف فقط كلما قادته خصيتاه إلى بيت القحاب هذا، أمام الماسورة السوداء المنتصبة على

كومود العجوز دون اهتمام، أحلم بالمجد العظيم الذي تصنعه هذه الآلة الصغيرة الملتهبة. ستقول ببساطة لخصمك: ارفع يديك... وبعدها ابحث باطمئنان في جيوبه عن مصروفك اليومي... واذهب!... لا أحد يقف في طريقك، ولا أحد يتجرأ أمامك على رفع صوته... أنت لديك مسدس جيد التصويب وهذا كاف كدليل على رجولتك...

لا... هذا تفكير ساذج... عليك أولا أن تبحث عن ضحايا جيدين... فالمسدس لا يمكن أن نهدد به أطفالا مشاغبين لتخويفهم، ولا أن نشهره في وجه موظف صغير ليس في جيبه سوى مصروف يومه، ولا أن نبدد الرصاص في السماء لمجرد شعورنا بالسعادة... سدد دماغك بشكل جيد كما تسدد ماسورة مسدس واختر ضحاياك من أولئك الذين ثمنهم أغلى من ثمن الرصاص النادر في هذا البلد...

وضعت قائمة وانتظرت حتى قضى عمي كعوان نحبه يلهث على صدر إحدى البنات، حالما صرخت: يا خاه مات!... اختفى المسدس من فوق الكومود صدفة، واختفت من جيب سترته ست رصاصات بلون الذهب... وتأكدت أن تلك التي تدّعي أنها أمي يدها تماما مثل فرجها غير نظيفة.

*

3

لمدة خمسين سنة، حكمت بقبضة من حديد، أرضا تمتد من البحر إلى البحر... أنام نهارا وفي الليل أجمع قادة أركاني وأخرج معهم لتحية الجماهير المصطفة في الحانات والمقاصف وبيوت المواعيد حيث تتم صناعة هذه المدينة وأموالها وعواطفها الصغيرة المؤقتة... أدير شؤون رعاياي بحنكة، وأحكم بينهم كل حسب رصيده، أراقب بانتباه حركة الأوراق النقدية، وأسهر دون إغفاءة على تضارب المصالح والصفقات ومضاربات الرؤوس أحيانا!؟

تلك أعباء الملك أقوم بها بكل حيوية ومسؤولية دون أن أنتظر من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، ولا حتى دعوات خيرة من العجائز والمُرائين... فالجميع في هذا المقصف الكبير يعرف أن يدي البيضاء يمكن أن تتحول في أي لحظة إلى كحلية بلون المسدس أو فضية بلون الخنجر... لذلك حين ينحنون ليُقبِّلوها أشعر بشفاههم عليها مرعوبة وباردة كشفاه الموتى...

أنا الملك وأعرف جيدا رعيتي... صحيح أنني أعرف أغلبهم من خلال ما تقوله لي مصادري عنهم... لكنني أثق في مصادري... مصادري تعرف مثلا أنهم يكذبون ويسرقون ويخونون بعضهم ويزنون بنساء بعضهم ويتآمرون أحيانا علي...

غير أنهم ككل الرعايا الصالحين يدفعون ضرائبهم في حسابي الخاص عن طيب خاطر ويصفقون حين مروري قربهم بحرارة وحماس!

هذه هي قاعدة الملك منذ بدء الخليقة فلا الجيوش تنتصر ولا العمران يرتفع ولا الأسواق تزدهر ولا المترفون يفسقون إلا بفضل دافعي الضرائب، إنهم شريان الحياة وطاقتها، فكلما كان دافعو الضرائب أكثر، كلما تحمس المؤرخون لتزيين تاريخ ممالكهم بأكاذيب جيدة الصنع، وتحمس الشعراء لمديح الفضائل غير الموجودة في ملوكهم، وأضفى العساكر النياشين غير المكتسبة على أكتاف زعمائهم...

قد يقول البعض أن دافعي الضرائب هم أيضا قلق الممالك وقلاقلها، فمهما يكن هم الذين نجدهم أيضا في الصفوف الأمامية في الثورات والتمردات على الملوك... هذا صحيح، لكن الملك الجيد هو من يعرف كيف يتلافى ثوراتهم وشغبهم ويجعلهم يدفعون الضرائب عن طيب خاطر!...

هل هناك نظرية أو قاعدة عامة يمكن بها تطويق هؤلاء الرعاع والاحتفاظ بهم في حجمهم الحقيقي كدافعي ضرائب؟ لا أعرف... كل ما أعرفه هو أن تخليصهم من فيروس الثورات لا يتم بتخليصهم من ثرواتهم فحسب، وإنما بضربهم على رؤوسهم الساخنة حتى تبرد.

إنني لا أدعي أبدا أن رعيتي من الملائكة، بل أعترف أنني اكتسبتهم بفضل قوتي وعبثي. ولولا يدي الفولاذية ما كان أحد منهم يعبّر لي الآن عن طاعته وخضوعه دون قيد ولا شرط، ولا

أن يُسبِّح أحد منهم الآن بحمدي... لقد عملت كل ما في وسعي كي أجعل حياتهم غير ممكنة العيش دون قوتي وعبثي، واخترت جماهيري بدقة من قائمة الأكثر فسادا وثراء، وقبضت على رقاب أرصدتهم حتى دمعت عيونهم...

لذة عظيمة تلك التي يشعر بها الملك وهو يرى رعاياه يتمسكنون وينتحبون كالأرامل أمامه، خائفين خانعين طائعين راكعين متبولين في سراويلهم... أولئكم هم شعبي العظيم الذي بنى أرصدتي العظيمة لمدة خمسين سنة دون ثورة ولا تهرب من دفع الضرائب!..

*

دون شك من يعرف أنذالا من نوع رعاياي يكون مضطرا للسهر على توفير مختلف المكائد والمشاكل كي ينام قليلا في القيلولة. ويقبض دفتر حساباته في يومه دون ثغرات ولا تجاوزات...

ففي السنوات الأولى من ظهوري في ليل الجزائر كنت أفكر دائما في كيفية ترتيب احتياجات زبائني، بل الأحرى اللا احتياجاتهم، كي لا أترك مبررا لأحد لأخذي على حين غرة.

الغفلة كما هو معروف، خصم عنيد للملك. فحالما تغفو عينه أو تنظر داخلها، حتى يسطو السفلة على لحظة من عمره. كل الملوك الأشداء طالت ممالكهم بقدر يقظتهم وحزمهم، بعضهم عاش مطمئنا خمسين سنة وآخرون مائة أو مأتي سنة في قبره مطمئنا لفعالية الآلة الجهنمية التي اخترعها وأورثها بامتياز لملوك رباهم على يقظته وفطنته. كل أولئك الملوك يتصفون بصفة مشتركة هي أنهم لا ينامون حين ينامون إلا كما تنام الثعالب: عين مغلقة وأخرى تراقب خم الدجاج...

الحزم هو سيد الممالك. كل الممالك القديمة تقوَّضت حين جاءها الورثة المخنثون الذين لم يتربوا على شطارة وخبث

شعوبهم، ولم يتعبوا أبدا في اقتناص النوايا السيئة قبل أن تتبرعم. بإمكانكم التأكد من ذلك في كتب التاريخ التي أنتم مولعون بها: لم تنهزم أبدا مملكة على رأسها الاسكندر المقدوني، أو أغسطس الروماني أو معاوية بن أبي سفيان العربي... وإنما تنهزم الممالك تحت وطأة ورثة ناعمين من نوع قبلاي خان وكاليغولا وعبد الله الصغير...

لقد عشت عشرات الأحداث المشابهة ورأيت بأم عيني كيف يمكن مثلا للحاج كلاهم، الذي سيصبح فيما بعد الوزير الأول لحكومة الفاسدين العظيمة، أن يثق في مدير مكتبه، مجرد ثقة بعين واحدة، فيكتشف أنه يرتكب أخطاء مجهريه في حساب الأرباح، قد تحوله بعد سنوات قليلة إلى كيس دراهم!...

ولولا تدخلي الشخصي لأسست سافلات العجوز قمير نقابة قحاب للدفاع عن شرف المهنة، لمجرد أنها كانت تجردهن من المصاريف التي يلطشونها منها في رافعات أثدائهن!؟

أما كشكول فقد انتهى، كما هو معروف تحت طلقات ابنه بالتبني، والذي صرف عليه الملايين من أجل الذهاب والرجوع من المدرسة مفاخرا أنهم أفسدوه بأخلاقهم القديمة: وهذا جيد كي لا يطمع في إرثي!..

ها هو ما دفعني إلى وضع قوائم لبعض الرعايا الذين يحتاجون مثلا إلى جواسيس ينقلون لي أخبارهم أول بأول، وبعض الرعايا كانوا في حاجة إلى ملفات جاهزة لتهديدهم، وآخرون وضعت مكائد جاهزة على مقاسهم لتوريطهم، وربما احتاج أحد منهم إلى أموال نظيفة لتبييض أمواله غير النظيفة، وقد يحتاج آخرون إلى فضائح لا تتسامح معها جمهورية النهار...

كل واحد وحاجته التي تدمي أصابعه إذا فكر فقط بأخذي على حين غرة...

لقد وجدت في هذه المملكة من الشعوب والعشائر الدامية الأرصدة ما يكفي كي يجعلني أتدخل كالعناية السماوية في الوقت المناسب، وأفرض نظاما عنكبوتيا صارما أقف متخفيا في زاوية منه لاصطياد كل حركة هجينة في مملكتي، وأعيد ترتيب الثروات في مجاريها، وأعطي كل ذي حق حقه في ماله، وأجرد كل ذي سلطان من خزنته، وأضرب وأطرح وأقسم رعاياي كل حسب ثمنه ورصيده...

وفي ذلك كله حرصت على أن أكون عادلا بقدر ما يجعل شعوبي وأرصدتي سعيدة بوجودها في عصري وتحت حكمي الرشيد...

*

إنني أستمع لرعاياي بما يشبه الاهتمام وهم يعبرون لي بسرور فائق على أن عنايتي، وعنايتي الملكية فقط، هي التي أنقذتهم من عصور الفوضى والانحطاط التي كانوا يعيشونها قبل ظهوري كمعجزة في حياتهم التي حولتها إلى جحيم جميل...

بل أن الرعية الصالحة الحاجة قمير، التي بعتها سرا البيت ذا الألف غرفة الذي كانت تملكه تلك التي تدّعي أنها أمي ، والتي حولته إلى أكبر ماخور في البلد، كانت تبذُر عواطفها القديمة ورائي كحنطة في حقل غير محروث، وتضيف كتعبير عن طاعتها الخاصة لي، فوق مدفوعاتها الشهرية، صبية في السادسة عشر لغسل عواطفي بالماء والصابون حين أكون طيب المزاج...

طبعا هي لا تفعل ذلك رعبا مني فحسب، ولا لإيمانها القديم بأن العواطف مثل الأجساد تحتاج مرة في الأسبوع لحمَّام ساخن، وإنما لكونها تعرف أنني لا أبخل عليها أبدا بحمايتي من الحساد والقوادين وترميم الآثار الجانبية للانهيار العصبي للمومسات اللواتي يفقدن الزبائن بمرور الزمن...

أنا موجود بجانبها هناك دائما حيث تحتاجني وحيث لا تحتاجني، كما تقول...

ورغم أن الحاجة قمير، وأنا أعرف ذلك بكل سرور، تستمد من حضوري كما يُستعاذُ من حضور الشياطين، إلا أنها تعرف أنني ضروري لها كملائكة الرحمة الذين يسهرون على الجانب الخيِّر من حياتها غير الخيِّرة على الإطلاق... إنها تتحصن بيدي الفولاذية وتتربَّبُ على منافساتها بعلاقاتها غير المستقيمة معي، وتتهرب من دفع الضرائب للحكومة متباهية بحضوري المسلح إلى جانبها...

كانت عنيدة ويابسة الرأس ككل عاهرة قديمة، وقد جعلتها موالية لي بفضل المكواة الكهربائية التي كويت بها جسدها المجعد بعد أن غسلت عواطفها الصغيرة في حمام ساخن. كان جسدها الشائخ مثل رأسها يبدو بتجاعيده الكثيفة كقميص سيء الكي، وكان علي كرجل يحافظ على مظهره أمام الناس أن أعيد كيه وترتيبه لتسويقه في السهرات الشبقة للسفلة...

كانت الحاجة قمير، وهي امرأة قديمة تؤمن أن المرأة الجميلة خلقت فقط للمضاجعة، قد جمعت حولها أفضل قحاب المدينة لولائم أفضل رجالها الفاسقين، كما تقول. كانت تعتقد في البداية أنها محمية برجال الحكومة الذين يبكون كاليتامى تحت أقدام بناتها في لياليهم الآبقة، وقد قضت بضع سنوات تحكم

بأحكامها كما يقال عندنا، تعين وتقيل أي مسؤول سام يلج بيتها بحذاء غير ملمع أو ربطة عنق لا تتناسب مع البذلة الكحلية التي يرتديها، أو حتى بناء على تقرير من إحدى بناتها يخبرها مثلا أن وزير شؤون العائلة خيبها في الفراش، فتقرر أن الرجل ناقص الفحولة في الفراش هو بالضرورة ناقص الفحولة في المنصب السامي الذي يحتذيه...

بعد فترة ملاحظة وجس نبض، أعدت لها بضع خطط جاهزة للإنعام عليها بالمواطنة في مملكتي... جردتها من المسدسات المنتصبة حولها ثم ... أرسلت لها رسالة مودة شائكة السلاح: لدي في ذمتك ضرائب السنة الجارية، وها هو رقم حسابي بالبنك؟.. وحين ضربت رسولي بمكواة كهربائية كانت في يدها، قررت أن أقوم شخصيا بزيارة عمل وتفقد لها...

هيأت لها كتيبة من العيارين والشطار اقتحمت قلعتها، اخرجوا بعض بناتها ومواعينها عراة إلى الشارع، وتم ربط أشداق كلابها الألمانية بالسراويل الداخلية لزبائنها، وحين وصلت إليها كان طريقي مسفلتا ونظيفا... وضعت المكواة الساخنة على بشرة بطنها وسحبتها ببطء إلى عانتها، كادت روحها تقفز من حنجرتها... لكنها بنفس تلك الروح الفاتنة قررت أن تتخلى عن عنجهيتها وتدفع ضرائبها في حسابي بمحبة وطيب خاطر.

هناك أيضا رعية آخر اعتبره نموذجيا لأنه يسبب لي الأرق باستمرار، إنه مرزوق الحداد صاحب حوانيت الذهب في مملكة الجزائر وضواحيها...

ذلك الحداد الذي أخذ لقبه هذا من صناعة الذهب التي لم يتقنها أبدا، كان لا يكف عن الدعاء لي بطول العمر وهو يدفع

نقدا ثمن الأمن والسلام الذي أصبح ينعم به كرعية من رعاياي... لقد عاش طول عمره يدفع الضرائب للحكومة، ويدفع الضرائب لموظفي الحكومة، وكثيرا ما يحمل في حقيبته الدبلوماسية التي يتزيا بها مع بذلته السوداء الخالدة، قطع لحم يرميها في طريقه للكلاب التي تحرس قصر الحكومة كي لا تنبح كلما مر أمامها... وطبعا هذا علاوة على مصاريف شهرية على الذمم السيئة للشرطة والجباة والقوادين وذوي النفوذ غير المستعمل بشكل جيد...

كان مرزوق الحداد الذي أتقن في الحقيقة هرس أعضاء خصومه بين المطرقة والسندان، رجلا ينام على إمبراطورية من الأوراق النقدية غير النظيفة، وأيضا إمبراطورية من الأفكار الجهنمية التي كثيرا ما تجرجره إلى أحذية خصومه...

ومن الطبيعي في بلد سيء الإدارة أن يطمع فيه الحساد وحاملو السلاح ومُسنُّو القوانين وبعض الصعاليك المحميين بالمراسيم الحكومية، وكان بخيلا إلى حد أن عينه تدمع إذا ما أعطى لمتسول صدقة يمسح بها بعض سيئاته...

حين ظهرت أنا كما الكوابيس في لياليه الآرقة، كان من ذلك النوع الذي لا يزال يرتدي القمصان المزركشة ويعلق قرن النشوق في حزامه كخنجر يمني ويتحدث فرنسية فولتير،، أطلق علي مشط المسدس ذي الرصاصات الست، واندهش لرد فعلي المحايد تماما... لم أخف ولم أتلاف طلقاته المسددة بشكل جيد ناحية القلب... فتح عينيه دهشة وارتجفت شفتاه للحظات طويلة ثم ركع أمامي منهزما واعتبر ذلك معجزة لا يأتيها إلا ولي صالح... وضع ضرائبه في حسابي الخاص ونام قرير العين..

بالطبع لم يجتهد مرزوق الحداد أبدا في التحقق من رصاصاته التي تم استبدالها برصاص أبيض من طرف ابنه

الوريث في الليلة السابقة من ظهوري كما الكوابيس المحترمة في حياته...

هناك أيضا مدير شركة "استيراد كل شيء" الكولونيل المتقاعد محيرقة الذي يشبه اسمه. كان صغيرا كرصاصة مسدس ولكنه شديد الانفجار... وكان حزمة من الأعصاب وأنابيب المجاري كما يصفه خصومه...

عندما تدق الساعة منتصف الليل من بداية كل شهر يتأبط كيسه الأسود الشهير ويأتيني باكيا: أنت تعرف أن الزمن أصبح صعبا،، والمال الكثير قليل... ولكن اللّه يَخْلف علينا وعليك!... كان مرتشيا مشهورا وبخيلا لا تملأ صدقته منقار عصفور...

عندما أخبروه بظهوري كالمهدي المنتظر في مملكة الجزائر الآبقة، قال لبعض الظرفاء حوله: هل مهديكم هذا صالحا للجماع؟!

كانت حكايته معي بسيطة وقاتلة في نفس الوقت. وأرى من واجبي أن أحكيها لكم لعل فاسدا عظيما بينكم يستفيد من عبقريتها...

سربت لإدارة الجمارك في جمهورية النهار ملفا كاملا عن مستورداته الحديثة والمحتوى الحقيقي لحاوياته التي تنتظر الجمركة في الميناء، مع بعض فواتير الأسعار الحقيقية للسلع التي زوَّر أسعارها، إضافة إلى قائمة كاملة برجال الجمارك الفاسدين المتواطئين معه، وألحقت الملف بتهديد ظريف: سأسرِّبُه للصحافة إذا لم يجد صدى لديكم خلال أربع وعشرين ساعة؟!

استباقا للفضيحة الإعلامية، قامت مديرية الجمارك بتفجير القضية كقنبلة نووية بين يدي الكولونيل المتقاعد محيرقة...

وألقي القبض عليه بتهمة الإعلان الكاذب في فواتير وسلع غير حقيقية... ومن جهتي أرسلتُ بعض الأغبياء من مندوبي الصحف والقنوات التلفزيونية لحضور مهرجان القبض عليه وتصويره مجرجرا مكمَّما كالمكلوب إلى السجن...

وبطريقتي المعهودة طوَّرت الاتهامات قليلا كي أؤثر على عواطف القضاة الذين اشتريتهم مسبقا. وبالطبع صدرت عناوين صحف اليوم الموالي بالشكل التالي: إنها أكبر قضية فساد وتزوير وتخريب للاقتصاد الوطني والمساس بالأمن القومي، الخ... يعرفها بلدنا المحمي بالأخلاق والقيم و... وما إلى ذلك... وأضاف له صحفيون ذوو نذالة جيدة: لقد أصبح من الضروري تطهير البلد من الفساد قبل أن يُطهِّر الفساد البلد منا!..

وحين استقرت مؤخرته على حصير الزنزانة المتسخ، وسقطت الباروكة التي يغطي بها صلعته وانحنى السيجار الضخم الذي لا يفارق شفتيه الغليظتين، وتأكد شخصيا أنه هالك لا محالة، تدخلتُ ووضعت بكل عناية رزمة ثقيلة من الأوراق المالية بين يدي قاضي التحقيق وأخرجته من الملف الأسود كالشعرة من العجين...

منذ تلك الحادثة المأسوف عليها أصبح يدفع تحت قبضتي الحديدية حقوق مواطنته في مملكتي وهو ينتحب كالثكلى: أنا شاكر لك فسادك العظيم الذي أنقذني من السجن المؤبد!؟

*

حكايات هذا النوع من الرعاع الرائعين كثيرة، بعضها جيد الإتقان، وبعضها باعد بيني وبينها الزمن بحيث لم تعد حتى ذاكرة الفيل التي أضعها في جمجمتي قادرة على استدعاء تفاصيلها الكاملة.

إنهم مجموعة من الفاسدين المنضبطين القادرين على القتل والاغتصاب والتزوير وحلف اليمين الغليظة ببراءتهم كالأطفال... التقوا جميعا في هذا العصر العظيم... نسجوا بأصابعهم الدامية وأنانيتهم المفرطة، وتواطؤ الأجهزة والرجال أكثر الأيام تنغيصا لهذا الشعب الذي يوصف دائما بالشعب الطيب والعظيم...

لكن بعض الرعاع من الفظاعة والجمال بحيث لا تزال ذاكرة المملكة بعد عشرات السنين تتذكرهم بشيء من الأسف والتشفي مثل ذلك العجوز الأرعن الحاج كشكول الذي حج سبع مرات للأماكن المقدسة طلبا للمغفرة عن ذنوب وخطايا هو يعترف أنها لا تغتفر... كان أكبر مُزوِّر للأوراق النقدية والمشرف العام على السوق السوداء للعملة الصعبة، ومالك مصانع التبغ والبيرة، ومحتكر تهريب المارلبورو وكل أنواع المشروبات الروحية... وأيضا رجل كل الفرص السانحة...

وهو بعد ذلك كله مُراءٍ ومُرابٍ لا يُستهان أبدا ببطشه الذي لا يسأل قتيله عما فعل إلا بعد أن يبرد في موته، ويبكي ضحاياه كما يبكي التمساح بشهية وشفقة ضحايا فكه القاسي!..

صنعت منه رجلا... لا ليس رجلا وحسب بل دجاجة تبيض الذهب... أنقذته أولا من مخالب وزير الجمارك بإشاعة لا تصدق ولكن لا يمكن التحقق منها... سربت للصحافة الصفراء معلومات محبوكة: التزوير المتهم به الحاج كشكول أمام مصالحك تم في مصدر الاستيراد في البلد الغربي، وهي مؤامرة منسوجة بإتقان لتكسير رجال الاقتصاد المهمين في هذا البلد!؟ ثم جعلت منه رجلا تتحدث صحافة جمهورية النهار عن عبقريته

التجارية ومساهمته الباهرة في التنمية الاقتصادية الوطنية، وتحول بين ليلة وضحاها من كيس نقود إلى برنامج عمل...

لكنه حين صدّق هو في حد ذاته هذه الإشاعات أذقته طعم مرحاضه...

بعض الرجال هكذا حين تذيقه طعم مرحاضه على مرأى من زوجته وحرسه الخاص، يصبح قوادا، ووفيا ككلب صيد، يدفع ضرائبه في الوقت المناسب، ويقدم لي معها في كل مرة غنيمة أخرى من زبائنه وخصومه الذين يكذبون في أرقام أرصدتهم واتفاقات البيع والشراء التي يحرصون على أن تبقى سرية بينهم خوفا من أصابعي التي ترى في الظلام...

كان قد أصبح خدوما وابن كلب لا يعضّ...

كانت خطته الخبيثة والجيدة الإتقان تتلخص في نقل قانون مملكة الليل إلى جمهورية النهار: ابتزاز ذوي النوايا الحسنة لاستثمار أموالهم في الجمعيات الخيرية التي أنشأها لهذا الغرض!..

قام بشراء بعض النوايا الجاهزة للاستعمال في أجهزة الأمن وبعض الأئمة وأصحاب المطاعم البسيطة وبعض الجمعيات المدنية الساذجة، ثم شرع في أكبر حملة إعلامية عرفها البلد... سمى الحملة تحت عنوان عاطفي كبير: " لكل فم ملعقة من ذهب "... استعطف في طريقه كل ذوي القلوب الجبانة، وحفظ بعض الآيات والأحاديث النبوية، ثم أطلق أئمته على منابر المساجد لنهش غريزة الخير في النفوس الساذجة... واعتقد الجميع أن الحاج كشكول، بعد أن بلغ الخامسة والسبعين قرَّ قراره أخيرا على دخول الجنة رغم أنف خطاياه وموبقاته...

أصبح الكثير من المتسولين والعاطلين وبعض ضاربي الجيوب الصغار يأكلون مجانا حتى الشبع في مطاعم الرحمة التي أنشأها... قدَّم للمدارس أدوات وملابس للتلاميذ الفقراء... دعَّم مشاريع من نوع تشغيل المعوقين والشباب العاطلين عن الذكاء...

استقبله رئيس الجمهورية شاكرا، وأقيمت له مآدب التكريم، وأصبحت نشرات الأخبار في التلفزيون الحكومي تفتتح نشراتها بأعماله الخيرية...

تفرجت قليلا على تلك المسرحية ثم مددت يدي لإزاحة الستار: هناك خلف الستار دائما يحدث شيء ما لا يراه المتفرجون؟.. وما لم يكن المتفرجون يرونه هو: أموال طائلة تخرج من العتمة إلى ضوء البنوك جيدة الحراسة...

كان حينها من واجب الملك الذي رأى جبالا من الأموال الليلية يتم تبييضها في بنوك النهار أن يتحرك بسرعة قصوى لجباية ضرائبه منها...

زرعت بعض الأحداث الصغيرة المدمرة في مصانعه ومخازنه ومكاتب شركاته بشكل سريع ومثالي كطلقات رشاش مجنون: حريق في أسواق الأجهزة الإلكترونية... انفجار مهول في خزان مشروبات كحولية... إغراق مخزن التبغ المهرب في طوفان المجاري... إضراب عام في مصانع الخمور السرية... خسارات مصطنعة في سوق الجملة وسوق البورصة معا...

وانتهى به الأمر إلى إخفاء رأسه في مرحاضه كي لا يسمع رنات التلفون التي لا تحمل له سوى الأخبار السيئة...

*

أستطيع أن أعدد لكم مئات السفلة والأنذال والقوادين من رعاياي الأعزاء الذين فقدوا تماما الثقة في حكوماتهم المتوالية كعواصف الخريف والتحقوا عن طيب خاطر بمملكتي المحمية بالقوة والعبث... إنهم جميعا يعبّرون لي عن إخلاصهم دون قيد ولا شرط، ويقدّرون الحروب التي خضتها من أجلهم كي أصنع بيدي الفولاذية هاته دولة كاملة من الوشاة والجباة والقتلة...

لا يمر دينار من جيب إلى جيب إلا وتُقتطع منه ضريبتي...

ولا يُعقد اتفاق شفوي بين سافل وآخر إلا ولي فيه نسبتي المئوية...

ولا تخرج سلعة من مخزنها إلا ولي فيها زكاتي...

وقد لمس الجميع عن طيب خاطر بطشي وعبثي حين تقبض يدي على رقبة أحدهم فلا تعيده إلى الحياة إلا مبلل السروال...

صحيح أنهم جميعا يبتسمون لي متمنين موتي، وهذا طبيعي في رعية جبانة ومتملقة رأت خصوم ملكها يتجندلون على أرصفة المدينة دون رحمة ولا شفقة... لكنني متأكد أنهم يدفعون ضرائبهم بالتمام والكمال وهذا بالنسبة لي كاف كتعبير عن الحب...

لست نادما على شيء معهم. وهم يعرفون أنني رحيم حين أرحم، وأستعمل على الأقل مائة يد حين أريد خنق أحدهم في مرحاض حانة أو مصعد عمارة أو حفل لاهب الأضواء... وبنفس اليد أدخل ملفات الشرطة، وأرشيف المحاكم، وإضبارات مجلس المحاسبة، مثلما تدخل الريح بحرية وهدوء، وأستخرج المعلومات الكفيلة بإخضاع خصومي أو وضعهم في ثلاجات الحكومة إلى أجل مسمى، حتى أعدائي يساعدونني أحيانا

بمعلومات ثمينة عن أعداء آخرين، ويأتيني الوشاة برؤوس أخرى في محاولة لكسب مودتي... غير أن ذلك لا يكفي ملكا محنكا مثلي... فالرجال في هذه المدينة لا يموتون فقط بالخنق في المصاعد والرصاصات الطائشة وحوادث الطرقات المفتعلة، بل من الممكن أيضا قتلهم بالنسيان...

ضع خصمك في جيبك وأنساه حتى يتعفن!

سأقدم نصيحة مجانية للأنذال الذين سيحكمونكم في المستقبل: على الملك أن لا ينسى أبدا..

النسيان آفة أشبه بالعثة قد تبدو حشرة تافهة ولا معنى لها ولكنها قادرة على قرض كتاب تاريخ البشرية إذا لم تحارب بصرامة...

قد ينسى الملك أحداثا معينة إلى أجل مسمى، وقد ينسى خصما في جيبه حتى يتعفن... ذلك نسيان مقصود ومحمود ولا ضرر منه. بالعكس قد يكون ذلك من بعض أسلحته التي إذا استعملها بشكل جيد يدمر بها خصمه كما لا يدمره المسدس...

النسيان الذي أقصده هو نسيان الواجب: إذا وعدت أحدا من الرعاع بالتهام خصيته لا تقم أبدا بقطع يده مثلا أو ثقب أذنه فقط... قم تماما بما وعدته به، وحتى إذا مررت كمجنزرة على جسده وطحنته، فالواجب الملكي يملي عليك التهام خصيتيه حتى ولو كنت شبعانا!..

الشعوب تنظر باهتمام إلى وعود ملوكها. بل أن بعض الشعوب تعتاش على الوعود كما تعتاش البهائم على الحشيش... ومن غير المعقول أن يعرف أحد رعاياك مثلا أنك لم تطالبه بدفع الضرائب لمجرد أنك نسيته... ذلك مؤلم وقاس حتى بالنسبة لرعيتك المسكين!؟

النسيان المتعمد هو أقسى طرق القتل، فخصمك يعيش حياة رعب حقيقية كلما تحسست جيبك، منتظرا أن تتذكره في أي لحظة فتمحق وجوده، لكنك لا تشرفه بهذا التذكر، فيزداد رعبا وقنوطا. وبما أنه يعرف مسبقا أن مساحة وجوده لا تتجاوز مساحة يدك، فسيظل هناك منتظرا لفتة كريمة منك لسحقه... غير أنك نسيته وهذا ما يجعل حياته بلا معنى كحياة الجعارين!!

*

هناك ألف طريقة وطريقة مثلما ذكرنا لصناعة خصوم جيدين ومقالب جيدة الإحكام...

على الملك أن لا يستهزئ أبدا في صناعة خصوم جيدين، كلما كان الخصم خبيثا وعنيدا كلما حفَّز مواهب الملك على ابتداع طرق غير مطروقة للقتل...

لقد علمتنا كتب التاريخ أن الملوك العظماء لهم فقط خدم وخصوم، ومثلما كانوا يصنعون بإتقان خدما يفرشون لهم الطريق ويغسلون مواعينهم، مثلما يصنعون الخصوم الذين يرفعون مجدهم وأرصدتهم...

هناك قاعدة هامة تجب معرفتها: على الخصم أن لا يكون خبيثا وعنيدا فحسب وإلا من الأفضل تجنيده في القوات المسلحة... بل عليه أن يكون ذا نوايا غير نظيفة كي يكون أكثر شراسة ووساخة، وبالتالي يستحق الاجتهاد لاختراع طرق غير مطروقة لاقتصاص الضرائب منه...

غير أن أسوأ الخصوم، حسب تجاربي، هم أولئك الذين لا تقبض عليهم مكائد الملك مباشرة... إنهم أشبه بسيدات البيوت اللواتي تدَّعين الاحترام، لكنهن يضعن بين الحين والآخر أيديهن في جيوب أزواجهن خفية لاقتصاد بعض الدنانير الثمينة، ويوما

بعد يوم يكدسن ثروات طائلة من قروش لا ترى بالعين المجردة...

كذلك أولئك الخصوم الذين يعيشون خفية في دواليب جمهورية النهار بقناعة وصبر، حياتهم الناعمة ببعض الدنانير الإضافية التي يلطشونها من هنا وهناك بعيدا عن أعين جباة الضرائب... ولكنك كملك مدرب تكتشف آثارهم باهرة أمامك ذات يوم كالثروات القديمة...

لقد علمت رجالي الكثير من علوم وفنون اكتشاف هذا النوع من الخصوم، هكذا أقول دون مجازفة في اللغة، مجرد اكتشاف على المستوى النظري وأترك لهم عند الامتحان حرية اختيار الحلول...

لكنهم مرة بعد المرة يعودون إلي يائسين. لقد غصَّ عظم سمكة قرش في حنجرتهم، وعلي الإسراع في مداواتهم شخصيا من ضعفهم البشري...

إن أخطر خصوم الملك هم أولئك الذين لا يؤمون الحانات والمقاصف ولا يخرجون مسدسا لإطلاق النار عليه ولا حتى ينشئون حزبا معارضا لمساعدته على جبي الضرائب بشكل أفضل، إنهم يعيشون في الطبقات الجوفية العميقة حيث لا تعيش سوى أسماك القرش... ولا يفعلون شيئا في الحقيقة سوى أنهم يأمرون... يأمرون فقط... ثم كل شيء يمشي على ما يرام إلى أرصدتهم... والنتيجة بالطبع تؤثر على هيبة الملك كجابي ضرائب لا يُدانى!..

إنني أعرف أن بعض الرجال في هذا البلد محصَّنين ضد الرصاص، ولا يذهبون للأماكن المعتمة، ولا يعملون بأيديهم

مباشرة وإنما بأيادي الآخرين، لذلك أضفت لدروس تحييد الرجال التي علمتها لأتباعي ومريديّ دروسا جديدة عن صناعة ملفات مُحكمة الصنع يتم تسريبها للصحافة بطرق سرية وغامضة حتى تبدو حقيقية وخطيرة، فيها صور لفواتير غير مدفوعة، وشهادات موثقة لرشاوى، وصكوك دون رصيد، ومن الممكن إضافة صور لإلياتهم عارية في غرف ماخور الحاجة قمير...

هناك أيضا تلك التقنية القديمة التي صنعها الرعاع، وحافظوا عليها كتقليد إنساني غير أخلاقي ولكنه مقبول: وشاية في أذن ضابط شرطة أو قاضي تحقيق أرعن أو وزير سافل وهم يتكفلون بكل ما يتطلبه القانون من احترام بالإطباق على حياة خصومك في أكثر السجون فظاعة إلى أجل غير مسمى...

كُل شيء ممكن... وكل رجل ويده!. ففي مملكة مثل مملكتي أبسط شيء يمكن أن يقترفه الرجال هو قتل الرجال، أو من أسميهم مجازا رجالا!. أما الذين يدفعون الضرائب فلست قلقا على مصيرهم، إنهم يعيشون ويموتون دون أن ألتفت لوجودهم...

*

4

هناك شيئان حافظت عليهما كملك: القوة والعبث!.
بالقوة تشتري ذمم الناس، وبالعبث يسهل عليك تدميرهم!.

لقد أصبح أبناء الكلب يسموننني الطاغية والإمبراطور والبعض يسميني بصيغة الجمع أباطرة... وأحيانا يسموننني بسخرية: الزعيم!! وهي كلها صفات بالنسبة لي أقل من العبث الذي حكمت به مملكتي، فالحكمة الذهبية التي اكتشفتها مبكرا هي أن الإنسان جبان إذا ما كسرت ذراعيه، وهذا منطق القوة... أما العبث فهو الإستراتيجية الوحيدة التي تسمح لك بالحفاظ على ذراعيه لاستعمالهما لتلميع حذائك!..

القوة والعبث هما مؤسسا الممالك العظيمة. لم يكن الاسكندر قادرا على مضاجعة الشرق لولا سحقه لبابل بين أصابعه الخشنة... ولم يكن هارون الرشيد لينال من خراج سحابة عابرة لولا أنه رصَّف لها طريق السماء حتى حدود الصين... ولم يكن لهتلر في العصور الحديثة أن ينهزم لولا أنه أخذ بجدية نكتة المنة العالم...

من الصعب أن تجد في تاريخ البشرية قوة خيِّرة أو قوة من أجل القوة فقط. دائما القوة الفاعلة في التاريخ هي القوة

الملازمة للعبث. فالأمم لا تنهزم على جبهات الحروب ولكن حين تقصف المدن ويموت غير المسلحين...

والأمم لا تفلس اقتصاديا لنقص في دخلها القومي وإنما لمصاريف زائدة على القحاب والمتع الصغيرة...

والأمم لا يتعطل ذكاؤها إلا حين يتذاكى سذجها ويستولون على الحكم...

غير أن القوة وحدها قاتلة، والعبث وحده أضحوكة!

لذلك على الملك أن يستوعب القاعدة التالية: لابد من صناعة غموض متقن لتغليف القوة، فالقوة العارية تبدو مكشوفة وقاسية وتثير ضغينة العاطفيين، ومن الممكن خداع وقاحتها ... وبالطبع أفضل مادة لتغليفها هي العبث... وسينجح الملك بشكل أفضل إذا استطاع أن يحزم ذلك العبث بخيوط بعض الإشاعات المتقنة!..

لقد تأملت طويلا هذه الحقيقة قبل أن أقرر قصف ميزانية هذه المدينة بأكثر أسلحة العبث توافرا: موظفيها الوسخين!..

*

هذه المدينة أعرفها مثل جيبي... هذه المملكة الصغيرة ذات الخمسة ملايين ساكن، وستين ألف سيارة، ومائة وثلاثين ألف ثلاجة، وما يقارب المليون تلفاز... أضف إلى ذلك، وهذا هو المهم، خمسمائة ألف رصيد لدى مصالح البريد والبنوك أغلبها لا يتجاوز الصفرين على يمين العدد، تحرسها أصابعي وتراقب حركتها بشكل دائم، لكنها لا تشكل وسواسا بالنسبة لي فأغلب أصحابها من ذلك النوع الذي يتجشم عناء النهوض باكرا للحاق بوظيفته، ويقضم راتبه كفأر قبل نهاية الشهر.

إن الوساوس التي تقض مضجعي هي تلك التي تدور حول ما أسميه الأكياس السوداء أو المطامير الفولاذية، هناك حيث تتكدس أموال هذه المملكة بعيدا عن عيون الحكومة، وعيون الكائنات الحسودة: بضعة أطنان من الأوراق المالية التي لا يراها ضوء النهار لكنها تصنع الضوء والنهار معا!.

كيف أكون هناك حيث تلف السرية المطلقة والظلام المطلق تلك التعاملات التي أسميها ضربة يد!؟

الحل البسيط بالنسبة لي هو الرعب: كلما امتدت يد إلى أعماق الخزنة ترتجف رهبة من القطع!

وبحكم الأصابع الشيطانية التي تخترق الظلام بعيونها الثاقبة، يعرف خصومي أنني أراهم وأعدُّ معهم كل ورقة يستخرجونها، وأغضب إذا ما استغفلوني...

ما كان لهذه القاعدة أن تكون بهذا الإحكام الرائع لولا شراء الآلاف من الرعاع المدججين بالرؤوس الخفيفة والرعونة الزائدة والأطماع التي لا تشبع... درَّبت البعض على استعمال أسنانه لمضغ الإشاعات، وآخرون اكتشفوا بفضلي أن آذانهم تليق كسعاة بريد، أما العيون فقد تم استعمالها كتليسكوبات لمراقبة حركة المجرات المالية... وبالطبع لم يبق سوى مفتولي العضلات الذين لا يعرفون فعل شيء سوى النطاح وقد جندتهم لتنظيف ساحات المعارك وتخويف الجبناء...

عمل عظيم بدأ كألعوبة وانتهى كواقع رهيب.

هكذا مثلا تطلب بشكل عابر من صبي الحانة معلومات عن ذلك الرجل القميء الذي يجلس في طرف المبسط ويجيبك مبتسما: لا أعرفه!؟ بعد قليل أعد طرح السؤال بالصيغة التالية:

أشرب على حسابي كأسا!؟ ويشكرك صبي الحانة مبتسما: أنت كريم... في الدقائق الثلاث القادمة سيخبرك منتشيا أنه مقاول، ربما اسمه رشوان، نحن هنا نسميه كيس الدراهم!.. ضع قطعة نقدية في يده وانتظر، ستمر عليك صدفة إحدى الداعرات المألوفات في هذا المكان، تصافحك بحرارة وهي لا تعرف من أنت... وتمر دون تعليق... أبعث لها مصروف جيب مع أحد أعوانك وهي ستتكفل ببعث بطاقة هوية المقاول على طبق من ذهب...

هكذا تبدأ الألعوبة دائما بابتسامة غير صادقة ولكنها ثاقبة. وبما أن الرجال يتحدثون في الغالب عن أمجادهم للحانات والنساء، فأنت تشتري آذان الناس فقط وهم يتكفلون، كل بطريقته، بإثراء رصيدك.

بعد بضع دقائق عرفت أنه في انتظار السيد الحظ للتفاوض معه في قضية جد مهمة. قلت: كم يزن؟! أجابت المومس بحسد: بضعة أكياس من أوراق البنوك... وعندما دلف عبدول البارمان من باب الحانة يدحرج رأسه الثقيل أمامه عرفت أن وزن الرجل فعلا معتبر...

علي أن أوضح هنا حقيقة صعبة التصديق: الرعب ليس فقط مضغ خصي الخصوم أو آذانهم... إنه أيضا شراء الذمم القابلة للفساد المفيد!؟

على هذه القاعدة بنيت مملكتي، قمت بتقسيم الرعايا كل حسب ثمنه وطاقة دماغه، ثم وضعت أمامي خريطة المتاعب التي اخترعتها كبرنامج عمل محكم، وأعطيت كل واحد دورا وثمنا...

ماذا يفعل الملك مثلا بخمسين ألف دماغ صلب يحملها على أكتافهم من يسمون مجازا رجال أعمال، سوى تنظيم مسابقات نطاح؟!

وماذا نفعل بأربعين ألف داعرة تجوب ليالي هذه المدينة سوى تجنيدهن كسعاة بريد؟!

وماذا يفعل الملك بخمسمائة ألف رصيد نحيف سوى استثمارها فيما لا تحمد عقباه؟!

ولكنه حين يلتقي مواطنا مفيدا مثل رشوان يعتبر أن برنامج عمله لم يكن خياليا، بل أكثر واقعية من هذا الواقع الخيالي الذي يعيشه الناس...

دلقت مومسه المفضلة فيما يشبه الخطأ كأس النبيذ على سروال ضيفه، وككل رجل أرعن رفع يده وصفعها... وكان على الملك أن يتحرك لصيانة الأخلاق النبيلة في هذه المملكة، حرشت عليه بعض الكلاب الضالة لنهش يده المرفوعة، ووضعت خصيتيه في مقلات الحانة، ثم عجنته قليلا ووضعته في سلة القمامة... تم كل ذلك دون أن أتحرك من مكاني... وحين جرجروه إلى تحت قدمي كان قد أصبح عجينة على شكل مواطن صالح يدفع ضرائبه في وقتها...

*

لا يمكن للقوة أن تكون مهابة إذا لم تكن صاعقة... ولا يمكن للعبث أن يكون فاعلا إذا لم يكن ملموسا...

تلكم هي القاعدة التي يجب على الملك أن يأخذها بعين الاعتبار.

غير أن هذه القاعدة لا تكون حاسمة إلا إذا طبقتها على الأقوى والأقرب منك، لأنك تعطي المثال لرعاياك على جديتك ولا تسامحك، وهو ما يجعل صورتك أمام رعاياك صارمة وحاسمة...

لقد قمت عنوة بتلقين بعض الشطار دروسا في احترام هيبة الملك على مرأى من الجمهور... قطعت لصديقي محافظ الشرطة سابقا والمعروف عالميا بفساده، سبابته بكلابة قديمة لكي لا يوقع أبدا أمرا بالقبض علي يشبه هذا الأمر: جيئوني به حتى ولو كان في رحم أمه!.. وأقحمت زجاجة جعة في أست حارسي الشخصي الذي يسمي نفسه بوديغارد حينما اقترب مني ليكاتفني أو في الحقيقة ليقيس قامته القصيرة بقامتي!... وأولجت ماسورة مسدسي بين فخذي تلك الفتاة التي تُدعى "عيشة راجل" والتي كادت تصبح زوجتي!؟..

بعض هذه الحكايات لم تعد تحكى بهذا الاختصار، فقد أخذت من فم إلى فم روائح أسنانهم وتحولت إلى قصص خيالية على طريقة ألف ليلة وليلة...

لكنني من جهتي ككل ملك عادل لم أصحح أبدا تلك الإشاعات، بل قمت بعملي على مرأى من الأشهاد دون أي متعة ولا تلذذ بصراخهم ودموعهم ورجاءاتهم... متعمدا إحضار بعض العاطفيين الذين سيتكفل جبنهم فيما بعد بتضخيم تلك الحكايات ونشرها في أطراف المدينة كالنار في الهشيم.

إنهم يعرفون أنني ككل ملك حريص على مصالح رعاياه، أعمل دون هوادة على حماية وأمن ممتلكاتهم وحركة أموالهم، وأحرص خاصة على توازنات أرصدتهم وميزانياتهم. فبعض الجشعين الصالحين يضيفون بين ليلة وضحاها بضعة أصفار على يمين أرصدتهم بفعل رشوة أو سرقة أو غش، وعلي أن أكون هناك كي آخذ نسبتي وأمسح آثار أخطائهم...

إنهم ككل المستعجلين على الربح السريع يتركون وراءهم دائما آثارا تزعج الشرطة والقضاة وبعض السياسيين الصغار، ومن مهامي تصحيح شراهتهم للأموال ومسح أخطائهم لإطالة عمرهم كدافعي ضرائب...

مهما يكن، الناس في هذه المدينة لا يحبون المال من أجل الصور المتقنة على الأوراق النقدية وإنما لتزيين صورهم الشخصية... وكلما كانت الصور سمينة كلما كانت سمعة الرجل سمينة!..

*

المال هو رئيس هذه المملكة ووليها الصالح... به يحلم الناس، ومن أجله يتخاصمون، وإليه يحتكمون... وبفضله يديرون شؤون حياتهم وعواطفهم.

لا شيء يتحرك في الطريق المستقيم دون مال... ولا شيء يجعل من الرجل رجلا سويا سوى المال...

لقد التقيت في مملكتي هذه مواهب كثيرة، بعضها فيه سمات العبقرية والغباء معا... ورأيت أجلافا وعمالا يستعملون عضلاتهم بدون أدمغة... ورأيت أياد من ذهب مشردة في حانات الليل دون هدف ولا جيوب يستدفئون بما فيها...

كنت مستاء جدا من هذا النوع من البشر الذين لا يستثمرون ذكاءهم فيما يجلب لهم المال...

لماذا نتعلم ونتذاكى إذا كنا نعمى عن إيجاد طريق المال، أو حتى اختراعه من ترهات الكتب التي أدمت عيوننا قراءة وتمارين؟..

إن الناجحين الوحيدين في هذه المملكة ليس الذين يكنزون الذكاء فأولئك يليقون بالوظائف الصغيرة، وإنما هم أولئك الذين يكنزون المال كما يكنز الضبع شحمه لأيام الشتاء الطويلة...

قد يقول البعض أن هذا مجرد مرض يصاب به بعض الأشخاص الشرهين، ذلك أن الحياة في نهاية الأمر لا تتطور بالمال إنما بالأعمال الصالحة كما يقول أسلافنا...

ربما ذلك صحيح في مكان آخر، أما هنا فبإمكانك أن تدخل إلى حانة وتصرخ: أعطني جرعتين من السعادة دون ثلج... رجاء!.. فيهرع النادل فرحانا: من أي نوع سيدي... لدينا بنات في السادسة عشرة ومشروبات روحية مهربة من أوروبا!؟.

السعادة هنا لها هذا الطعم المُسكّر... والأثرياء عندنا يشترونها كما يشتري الرجل منا المشهيات والشوكولاطة من حانوت أسفل العمارة لتحلية ريقه المرير بفعل تلوث حياته.

قد تكون تلك سعادة مؤقتة، كما يحلو للبعض وصفها، لكنها ضرورية لإعادة الرأس إلى مكانه الصحيح واستقامة الحياة في هذه الأرض الشديدة الانحدار، حتى ولو كان ذلك مؤقتا..

لا... أنا لا أستعمل هنا المجاز ولا أقترف الخرافات... إنها الحياة، كما هي، وكما يمكن أن تُعاش على منحدر وعر لا يسمح بزلة قدم... هنا لا تستقيم قامات الرجال ولا تستوي رؤوسهم إلا إذا كان لديهم مصروف جيب محترم، وبعده يتفرعنون!..

لعل البعض لم يتفهّم الخطوة التي قام بها ذلك الذي أسمته الصحافة فيما بعد فرعون الصغير. كان مجرد صراف في صندوق البنك يعيش شهريا بصفرين أو ثلاث على يمين العدد...

يعبر الشارع دون أن يثير انتباه أحد... وتهرب منه زوجته الأولى لأنه يحرمها من العطور والفواكه... عندما بلغ الأربعين شاهد بأم عينه كيف أن الحياة تتسرب بين أصابعه كما يتسرب الرمل في الساعات الزجاجية البدائية...

قرر أن يضع يده في الوحل وأضاف بين ليلة وضحاها ثمانية أصفار جديدة من أرصدة الآخرين لرصيده النحيف، وبنفس البساطة قرر أن يدخل السجن لخمس سنوات كاملة ثم يخرج ملياردير ليعيش ما بقي له من العمر ملكا قبل أن يموت في الخامسة والخمسين يأسا وقنوطا...

كانت حساباته الساذجة مثيرة للشفقة فعلا، ذلك أن شراء كتيبة من الشرطة والقضاة وحراس السجون لإنقاذ رأسه من السجن المؤبد يكلفه دون شك قعر خزانته. وكان علي حينها أن أتحرك بسرعة لسلخ وجهه القديم، واستخراج شهادة وفاة مسبقة من طبيب شرعي، وتزوير إضبارة كاملة من وثائق الهوية، وكتابة سيرة ذاتية جديدة له، ثم خبأته لبضعة أشهر حتى يسمن قليلا، ويصلع قليلا، وتنساه الشرطة قليلا للمرور على حواجزها الكثيفة دون إثارة الشكوك...

تساءل: كم ستكلفني يا ترى هذه السعادة التي نوَّرت بها حياتي؟

قلت: نصف المبلغ المسروق والباقي نتقاسم كل ما تستثمره بالنصف...

فكر قليلا في سنوات السجن المظلمة، وفي ملفه السابق الذي احتفظت به لوقت الحاجة، ووقع العقد دون تفاوض تقريبا...

أردت أن أعلمه بعض الدروس في الأعمال والصفقات وشراء وبيع السعادة، لكنه أشار بامتعاض: ما عليك فعلته يا جلالة الملك... شكرا لك... الباقي علي!..

كان ابن الحرام من الفطنة بحيث تحول بين ليلة وضحاها إلى مدير صناعات السعادة المعلبة في كامل البلاد: اشترى بضعة أحمرة وبغال وذهب إلى حدود البلاد... قام بتدريبهم على اختراق الحدود والعودة إلى إسطبلاتهم عن طريق جبال وعرة لا تخترقها دوريات حراس الحدود...

كان قد تنبه إلى شيء لا يعرفه سوى الملوك: الناس يمشون على بطونهم وليس على أرجلهم؟ وكان يقول ضاحكا لبهائمه: الجوع يكسر الأقدام ولكن مائدة جيدة التصفيف تمحو العياء!... وكانت بهائمه لا تأكل ولا تشرب حتى تعود إلى إسطبلاتها أو تموت في الطريق...

وقد كلفه ذلك ككل مربي بهائم سنة ونصف السنة تقريبا من تدريب أحمرة وبغال على حفظ طريق الذهاب والعودة وحدها. عانى الأمرّين كما يقال، قبل أن تصبح تلك البهائم المدللة أكبر مهرب للحشيش والماريخوانا بين دولتين شقيقتين إحداهما تزرع والأخرى تسوّق... وشرع في تصنيعها وطهيها على شكل سوائل أو أسمدة راقية لصناعة الحلوى... ثم جمع حوله جيشا من الرعاع البطالين لتأسيس شركة توزيع كبرى في زوايا الشوارع المهجورة لتسويق مأكولات ومشروبات السعادة كما سماها... ولولا تدخلي الشخصي للحد من توسعه لقام ربما باستيراد اليورانيوم المخصب لصناعة لا أدري ماذا؟..

كان قد أصبح فرعونا صغيرا، خاصة بعد زواجه بابنة ضابط كبير تسكع وراءها قليلا بمرسيدس آخر طراز، كما تبجح أمامها في شارع كبير، فسقطت في غرام سيارته فتزوجته.

وكان علي أن أتدخل مرة أخرى لإعادة ترتيب رأسه على كتفيه حين قرر أن يوقف دفع الضرائب لحسابي لمجرد أنه وظف حراسا أكفاء، وأحاط قصره بأجهزة إنذار متطورة استوردها خصيصا لشمّ أنفاس الغرباء، وقام بشراء كتيبة صغيرة من الموظفين السامين في جمهورية النهار لحماية عموده الفقري من الاعوجاج، كما قال...

انتظرت بضعة أيام حتى يبرد رأسه الساخن، ثم أرسلت ملفه القديم للشرطة وصحافة الفضائح ووقفت أتفرج بحياد على المعركة الحامية الوطيس...

من جهتي أفهم هذا النوع من البشر الذين لا تستقيم قامتهم إلا بالمال... ولا يأكلون حتى الشبع إلا بالمال... ولا يقنعون امرأة أعجبتهم إلا بما لديهم من مال... وأكثر من ذلك يربطون بشكل آلي بين المال وسلعة السعادة التي لا يتلذذ بها إلا من اتسع قلبه لها.

لقد شبهت هذا النوع من البشر دائما بالبنوك التي إن لم يكن لديها مال ينتفي وجودها في حد ذاته!.

*

على الملك الذي يتعامل مع السفلة أن يتكلم لغة السفلة، وإلا سيبدو كشاعر يلقي قصيدة في إسطبل ثيران...

لكل الممالك القوية لغتها الخاصة، لا يحتاج الملك فيها كي يشرح ويفسر ويبحث عن المعاني المفهومة لرعيته، هو يقول: احتاج ضرائبي هذا اليوم... ويجيب الرعية فاهما: حاضر يا جلالة الملك... اليوم..! أما إذا كان أحد الرعايا ثقيل الفهم فسيحتاج الملك إلى ثقب رأسه كي تدخل وتخرج الكلمات بسهولة، فليس من السهل تعليم البهائم الغناء.

وعندما يأتي رعية طارئ على المملكة باحثا عن السعادة فعلى الملك أن يفهم دون أي كلام أن هذا الرجل أصبحت لديه قابلية معقولة للفساد وعليه أن يتبناه ويربيه ويحافظ عليه حتى تستوي الأرض تحت قدميه.

على الأقل هذا ما كان يؤمن به عبدول البارمان الذي جاء كطفل مهمل من سفينة قديمة لصيد السمك، وشق طريقه في مملكة الليل بقبلاته الأربع على وجوه كل من يلتقيهم، وروحه المرحة التي تضحك على الناس بلا مبالاة، وبعض شطارة اليد التي تخطف المحافظ من الجيوب الداخلية للرجال المتأنقين... كان فاسدا رائعا لم يتورع عن قتل زوجته، صاحبة حانوت بيع أسطوانات الأغاني، التي تزوجته لصيانة تجاعيدها، ووظفته ليتلقط الخبز كالعصفور من ساحة بيتها ... لكن الحظ وحده هو الذي قاده، كما يقول، إلى استثمار أمواله المسروقة في حوانيت بيع السعادة!..

كان يؤكد لزبائنه أن سلعته نظيفة مائة بالمائة: جيش من الفتيات الفاسدات جيدات التدريب... وشارع من الحانات والمقاصف جيدة السرية... وبضعة نشاطات في العلن لتبييض أمواله الوسخة: كتشجيع المطربين الصاعدين... وتسويق الأغاني الفاجرة... وحوانيت صغيرة لبيع مواد التجميل وملابس النساء الداخلية والعطور المقلدة المسكرة...

كانت حياته تمشي على الماء، كما يقول، رقراقة ذات خرير عذب، حتى وصلت إليه أنا ففاجأه الطوفان...

عندما قمت بزيارة خاطفة لبيته الشبيه بقصور بغداد، كما تصفها كتب القرون الوسطى، لم أكن في الحقيقة في حاجة للسعادة التي يبيعها للمعوزين... كنت في حاجة لروحه!..

أحيانا أفكر بمثل هذه السذاجة: لعل كل روح أقبضه يزيد قليلا في عدد حراسي وفطنتهم لحمايتي من الحساد!..

لكن روح عبدول البارمان من الوساخة بحيث يعاف الملك إضافتها لحرسه الخاص... كان يطهر أمواله بالصدقات على المتسولين في طرقات النهار... وينظف أسنانه بعد أكل ضحاياه بالفرشاة والمعجون... ويتوضأ كلما ضرب أحد عماله أو اغتصب إحدى نسائه... وبعد ذلك كله يعمل كنادل مسكين في حانة من حاناته ليلتقط الخبز كما يقول...

كان يعيش حياة حيوانات حقيقية، لا يدفع الضرائب ولا يفكر في النزوات الحيوية للملك... يأكل ويتزوج كل ليلة ويكدس أمواله في قبو تحت غرفة نومه... ثم ينام هو مرتاحا وأنام أنا على فراش من القلق!..

قمت بعملية حسابية بسيطة : جمعت وضربت وقسمت كل ممتلكاته فطلع الحساب عندي بضعة أكياس من الرزم المالية... أرسلت له كهدية متواضعة إلى غرفة نومه قفازات من حرير ومسدس كاتم للصوت... وحين لم يفهم اللغة التي خاطبته بها تجشمت عناء التفكير في لغة يفهمها هذا البهيم..

انتظرت بصبر يوما ويومين و... اتصلت بعشيقته ذات الصلافة الشائعة: هل تريدين أن تصبحي ملكة... سأتوجك على شعب قليل وأموال كثيرة...

ضحكت: هل تتزوجني... أنا على استعداد لركله على مؤخرته من أجلك؟!

كانت تظن أنني أتمسخر... أكدت لها أنني مشفق عليها حقا من رجل رأسه بين فخذيه، فهي أجمل وأذكى امرأة في مملكتي، وكل الرجال يتطلعون لرؤية ذيل ثوبها...

غرزتُ عيني في عينيها وأضفت بهدوء قاتل: أما أنا فأريد الزواج بعبدول البارمان!..

انتظرتُ حتى استوعبتْ كلماتي، وأغلقتْ فمها المفتوح كإسطبل، وأضفت: أعرف أنك تعشقين رصيد عبدول وليس عبدول البارمان الذي لا يليق في الحقيقة بجمالك... هل تعرفين أن جمالك هذا يليق بصفحات مجلات الموضة...

نظرت إلي مبهورة:

- حقا، لم أسمع أبدا مثل هذا الكلام الجميل من ذلك البغل...

لم أقل لها أبدا أن لدي صورا لمؤخرتها عارية في بيت وزيري لشؤون الضرائب ودون شك كل الصحافة الصفراء على أحر من الجمر لوضعها في صفحاتها الأولى... ذلك آخر إجراء يمكن اللجوء إليه... لكنني أعرف أن الطمع الذي تتميز به سيلتهم خيالها الصغير...

قالت: ما الاقتراح؟

عندما فتح عبدول البارمان خزنته ليرصف فيها رزما جديدة وجدني أتقلب سعيدا على فراش وثير من الأوراق المالية المتناثرة...

لم أقطع أصابعه، ولم أفجر بيته بقنبلة موقوتة، ولم أمد يدي إلى رقبته. قلت : أريد روحك فقط... أنا متعب ولابد لي من روح آخر يحرسني من خصوم قد يرثون نذالتك... إنني أشعر أن كل

روح أقبضها تتحول إلى حارس مطيع يحرسني ممن قد يرثون خفة رؤوسكم وأيديكم!؟

ربما حدث خطأ ما في التعبير فلم يفهم عبدول هذه اللغة التي خاطبته بها.

ففي تلك اللحظة الحاسمة من حياته كان من الأفضل أن أقول له بلغة تجارية بسيطة: بعني روحك، أو جئت لأشتري منك روحك مقابل هذه الأوراق جيدة الطباعة التي أفترشها!. لعله كان حينها يفهم لغة السوق ويقول خذها ووفِّر روحي...

لكن اللغة الروحية التي خاطبته بها أوقفت قلبه فجأة، ووضعتني في حرج لا مثيل له...

اغتظت كثيرا كونه مات بسكتة قلبية دون أن يتبول في سرواله تحت قبضتي.

للأسف، الناس هكذا في الممالك المهملة، كل طائر يغني بغناه، كما يقول المثل الشعبي، وعلى الملك قبل أن يقدم على مخاطبة البهائم أن يتعلم لغتهم.

*

5

اخترت منذ البداية العمل المنظم والنظيف: لا أترك ورائي أثرا... ولا أوسخ يدي أبدا!. أقوم بعملي كواجب لابد منه، وأتحرى الدقة والعدالة والمصلحة الشخصية فيما أقترف...

ليست لي عواطف ولا أحاسيس شخصية تعيقني على تبيّن خصومي، أنا مجرد ملك يؤدي واجباته السلطوية إزاء رعاياه، أحيانا ببعض الصلف والتسلط، لكنني في الغالب أقوم بذلك ببرودة دم وحسم يزعزعان أكثر القلوب صلابة وتجربة.

لقد أخذت هذه القاعدة كصراط: علي أن لا أتردد أبدا أمام الواجب الملكي وأن لا أعمل العمل نفسه مرتين!؟

هذه القاعدة الذهبية لا تسمح أبدا بإهمال أو تأجيل التفاصيل... مرة واحدة وإلى الأبد أضع خصومي في ثلاجات الموتى، وأواصل واجبي إزاء رعاياي كملك صارم من الأفضل تلافيه...

أمام هذه الطريقة يتساوى الكل، من الخباز سيئ الحظ الذي رفض أن يقرض "الثكنة" كما نسمّي بيت تلك التي تدّعي أنها أمي، بعض الخبز والحلويات فسقط صدفة في المعجن الكبير وتخمر مع السميد... إلى أخي بالتبني ذي الاسم البراق: قُروش... الذي سطا على تحويشة عمر العجوز في ذلك اليوم

العاصف ليشتري بضعة غرامات من المخدرات يتقوَّت بها، على حد تعبيره، فزلت قدمه من شرفة بيت في الطابق الثالث استجابة لدعوات العجوز عليه بالموت... إلى عمر الرُّجلة الذي زنى بابنة عمي كهوان خضرا وأقحم في بطنها طفلا قبل بروز نهديها فخلصته من ذلك الإصبع الدائم الانتصاب تحت صرته وأقحمته في دبره!!

الكل أمام عدالتي سواسية... من لم يمت قهرا مات بغيره...

قلت دائما أنني لا أشعر بأي لذة في القيام بواجبي لكنني أقوم به بدقة ومهارة عاليين. فحينما أقرر التخلص من دافع ضرائب سيئ أوزع دمه على الأيدي الطويلة التي املكها، وأترك لها حق رصده وتعقبه وعقابه، ثم آخذ نسبتي من الأرباح بعد سداد الدين...

حتى في تلك اللحظات التي انشغل فيها بالتمثيل بجثة ضحية ما، أمنح يدي لرجال حولي دربتهم خصيصا على استعمالها بمهارة ودقة عاليتين... لا أحد منهم يترك وراءه أثرا، ولا أحد يضع يدي حيث لا يجب... إضافة إلى أن لا أحد منهم يعمل العمل نفسه مرتين!!

أولئك الأنذال الرائعون علي أن أخصهم ببعض صفحات التمجيد فيما بعد... فهم في نهاية الأمر بعض من أصابعي التي أمشط بها الأرواح المشعثة...

*

ما يحرج أحيانا دقتي ومهارتي هم بعض الخصوم الذين أطلق عليهم اسم الكائنات غير المفيدة، أي أولئك الذين لا يدفعون من الضرائب سوى ما يبلل الريق... ولا يدفعونها إلا تحت التهديد...

إنهم لا يُروَّن بالعين المجردة وباستطاعتهم أن يخدعوا أكثر المكائد حكمة وصلافة.

لقد قلت في السابق أن على الملك أن يدرب أذنيه على الرؤية أيضا، ذلك أن مثل هذا النوع من الخصوم لا يمكن رؤيتهم بحاسة النظر فقط بل بحاسة الوشاية أيضا...

وإلا كيف يمكن أن يعرف مثلا أن صاحب حانوت أسفل العمارة تزداد سعادته يوما بعد يوم!..

الملك لا يرى بالطبع مثل تلك الكائنات النهارية المغيظة، والجواسيس الذين يتعقبون نوايا دافعي الضرائب لا ينتبهون أحيانا لزيادة أسعار المواد الغذائية الراقية، لكن الملك الذي درب أذنيه على الرؤية في الظلام الدامس يسمع بشكل عابر أن بعض زجاجات المشروبات الغازية تحمل ماركة نوع محترم من المشروبات الروحية...

نفس الشيء ينطبق على صيدلية الليل المفتوحة التي تبيع سرا للمراهقين والمدمنين أقراص السعادة، كما يسمونها، وهي ممنوعة في جمهورية النهار ولا تعطى إلا بوصفة طبية..

إنني أعرف أن الصيدلي نظيف الذيل كعانس بكر، ولكن الموظف الذي جاء به لمساعدته، بعد أن أتعبه السهر اليومي، هو الذي جند مستوردي الأدوية في برنامجه الاستعجالي، وكان على الملك أن يرى فقط كلمة عابرة من مدمن عابر في آخر الليل ليتعقب المعلومة بشكل حاسم ويصل إلى أموال غير مطهرة وبالتالي إلى خصيتي الصيدلي الشاب...

وكانت حكاية موظف مكتب البريد معروفة، فقد جمع ما لا يحصى من القطع النقدية الصغيرة التي لا يهتم الزبائن عادة بتحصيلها، فيتركونها له على شكل بقشيش، وأحيانا يعتذر بخجل مفتعل: سامحني، ليس لدي صرف... تنقصك ثلاثة دنانير!.. ويقول الزبون بامتعاض: راك مسامح؟ وبعد أقل من سنة تناقلت الأشداق المفتوحة كحظائر البقر أنهم رأوه يجرجر وراءه كيسا ضخما من القطع النقدية الصغيرة والثقيلة...

مد الملك أذنه الطويلة إلى رقبة الموظف واستخلص بصعوبة بالغة ضرائبه!.

تلكم مشكلات تحتاج ليقظة ومتابعة دائبتين، ولكن بشكل خاص لآذان كافية لاختراع حلول عملية وسريعة كي لا يتحول الخطأ، كما يحدث دائما، إلى عادة تضر بمصالح الملك وضرائبه.

*

صدقوني، حياة الملك ليست سهلة ورقراقة كنهر النيل... كلما اقترب أكثر من رعاياه كلما تحولت إلى حياة نغص ومغص... وإذا لم تكن أذناه طويلتين مثل يده فإنه لن يسمع أبدا بحكم قاضي قضاة مملكة الجزائر، بالتنازل للمقاول رشوان عن خمسة آلاف هكتار لبناء مجمع سكني راق على أرض عائلة ماكاش...

ضرب القاضي مكتبه بمطرقة كما لو أنها مطرقة كهربائية ونطق بالحكم: في إطار ترقية العمران في هذا البلد، حكمت المحكمة بالتنازل الفوري لعائلة ماكاش عن أرضها التي ورثتها عن أجدادها الأتراك منذ القرن السادس عشر للمقاول الوطني المعروف رشوان لبناء أكبر مجمع وطني في تاريخ السكنات

الجاهزة ومرافق عمومية للمنفعة العامة و... تعويض أفراد العائلة الخمسة بشقق في حي سكني مقبول...

وانتهت القضية... ورفعت الجلسة... وكادت تموت غيظا عائلة كاملة من السذج الذين يأنفون من دفع الرشوة حتى لحماية حقوقهم!؟

كان القواد الذي نقل إلي حكم القاضي من فرط دهشته قد حفظه عن ظهر قلب. والحقيقة أنني استأت كثيرا من سرعة وصرامة الحكم. كنت منتظرا منه بعض الوقت لتسيير شؤون أخرى مكملة لهذه المكيدة، لكن القاضي استعجل الأمر، ودون شك أن وراء هذا الاستعجال مبلغا فلكيا رماه القاضي في صندوق السيارة الخلفي وخرج من المحكمة فرحانا بنفسه...

للأسف، لا يمكنني قتل قضاة بهذا الفساد الرائع... فأنا ممن يؤمنون أن جهة الحديقة من وجودي في حد ذاته يعود إلى فساد العدالة الجميل. ففي نهاية الأمر العدالة لا تخترع حياة الناس وإنما تعطيها معنى... وبما أن هذا المعنى غائب فإن القضاة يعطونني بفسادهم الرائع فرصة صناعة معنى العدالة حسب مصالحي الشخصية، وهذا يستحق مني الاحترام والتقدير!؟

هكذا سيكون معنى العدالة على طريقتي بسيطا: اقتصاص ضرائبي من رشوان كما تقتضي صفقة هائلة من الأكاذيب... ثم غسل القاضي ذي الثلاثين عاما من ذنوبه التي أفقدتني ثروة كبيرة، فأنا الوحيد الذي كان بإمكانه بيع تلك القطعة

لثلاثة أوغاد في نفس الوقت وقبض ثمنها منهم في نفس الوقت ثم تركهم يتآكلون من أجل امتلاكها كالكلاب المغلوثة!...

لكن القاضي المستعجل قبض حقيبة صغيرة من العملة الصعبة، تأبطها كما يتأبط جائع قطعة كسرة، ثم غادر المحكمة الصورية فرحانا بنفسه..

ماذا يريد القاضي بهذا الحكم الفردي غير المدروس جيدا؟ هل قضاء ما بقي من مراهقته على شاطئ الريفييرا؟ مبروك...

ما أحرجني حقا هو أنني قبل سماع هذه الحادثة الرائعة كنت قد طهرت روحي ببعض الماء والصابون استعدادا لليلة صفقات ساخنة في بيت الحاجة قمير!. لكن النغل اعترض طريقي فجأة وأنا في الحمام أفكر بسخرية في عرض الحاجة قمير الخرافي: شراء باخرة من الأحذية الأوروبية لبناتها!. غبية... كأن لبناتها الوقت لاستعمال الأحذية: القحاب يا عجوزنا لهن أجنحة ينتقلن بها أما أقدامهن فيتطلعن للسير بها على أكتاف الرجال!...

لكن قاضي القضاة نغَّص علي متعة ظفر شبكة جديدة من المكائد تليق بحلق رؤوس مدراء شركات على حافة الإفلاس ومن بينهم مدير شركة صناعة الأحذية النسائية الذي قيل لي أنه أعلن إفلاس الشركة وترك بيت الزوجية، وأقام بصفة نهائية في بيت الحاجة قمير...

ها أنتم ترون أن ألف شبكة وشبكة تنسج في نفس الوقت وبتناغم رائع من طرف أعظم الفاسدين في هذا البلد... وعلى الملك أن يفكر بحسم في خصومه، لذلك قلت ككل إنسان حكيم:

حفظا لماء الوجه أحرِّش على القاضي وزيري للضرائب وسينهش روحه قبل إصدار مرسوم بإعفائه من منصبه بدعوى استدعائه لمهام أخرى!. وبالتالي أجعله عبرة لأولئك الذين سأتفاوض معهم بعد قليل لحلق رؤوسهم الشعثاء...

إنني لا أجد أي سعادة حين يخبرني وزيري مثلا بصوت عال في اجتماع رسمي أنه قاد القاضي الشاب المسكين وفرائصه ترتعد إلى محل تنظيف عمومي ورماه في غسالة كهربائية لتطهيره من ذنوبه!..

- ذنوبه فقط يا جلالة الملك... أقسم... أما ملابسه فقد كانت نظيفة من قبل...

صحيح أن فرائص المجتمعين معي ارتعدت، وأمضوا لي صكا على بياض، لكنني أترفع على صورة الملك الذي لا يحترم رجال العدالة الفاسدين...

*

ربما يعتقد البعض أن تلك قسوة زائدة من ملك له الطاعة والخضوع في كل حانات ومقاصف الليل في هذه المملكة، وهذا غير صحيح... ففي أسافل هذه المدينة يوجد أنذال رهيبون ذوو أصابع حادة تذبح المغفلين، يتميزون بأخلاق متضخمة وأفواه شرهة لعلف الأوراق النقدية، يريدون كل شيء لهم، يشترون ويبيعون الناس والذمم والوعود الكاذبة، محصنين روحيا ضد أي إحساس بالذنب، يسرقون ويرتشون ويحوِّلون أموالا عمومية ويعقدون صفقات مشبوهة ولا يتورعون عن بيع أمهاتهم أو بيع هذه المملكة الآمنة إذا وجدوا من يدفع أكثر..

هذا النوع من الرعاع لديهم قدرة خارقة على البكاء بين يديك والقسم بكل ما يؤمنون وما لا يؤمنون به أنهم نظيفون كدراهم خرجت للتو من البنك...

ألم أجعل من رشوان مثلا مقاولا لا يُشق له غبار؟.. اشتريت له ديبلوما في الهندسة المعمارية، وهو لا يعرف كتابة اسمه، وبدينار رمزي واحدا اشتريت له شركة عمومية مفلسة بكل عمالها ورافعاتها وشاحناتها وفؤوسها ومسحها وبرامج عملها المشينة،، ومن أجله اشتريت قاضيا جاهزا للفساد،، وبعد ذلك كله دللته على أرض عائلة ماكاش في الضواحي على أساس أنها أرض بايلك، بعد أن مات والدهم ذلك العظم اليابس الذي لم يدفع الضرائب طيلة حياته... وحين اعترض ورثته جرجرهم رغم أنفهم بوثائق لا يطعن أحد في صحتها، أمام القاضي المشترى سلفا، ثم قمت بتجنيد بعض البنوك والشركات العمومية لتمويل أكبر مشروع وهمي في تاريخ السكنات الجاهزة... وحين وضع اليد على الغنيمة رآه أحد المخبرين قلقا في رواق المطار يتأبط حقيبة ثقيلة.

قلت : أعمل ما في وسعك لتأجيل توقيت الطيران...

قال : مستحيل... على الطائرة وفد رسمي رفيع المستوى من جمهورية النهار المحترمة...

قلت : الحل الوحيد أسرق منه الحقيبة بأي شكل...

عندما جاءني رشوان في تلك الليلة باكيا اضطررت إلى ضربه على أليته كي يفهم أنني بقدر ما أنا طيب ومتواضع بقدر ما أنا قاتل صارم لا يتوانى عن الضحك على قتيله...

ماذا أفعل من أجلكم أكثر أيها الأنذال؟

من أجلكم أبدعت أكثر الطرق جهنمية في فنون الرشوة والسطو والمحاباة والسرقة والقتل غير المتعمد وأجهزة النظافة الأكثر شطفا وتجفيفا... و... ومع ذلك لم أطلب منكم حبا أكثر أو احتراما أكثر... كل ما طلبته منكم أيها الأنذال الرائعون أن تحبني أوراقكم المالية... ماذا يفعل الملوك بحب شعوبهم... هل تزيين كتب التاريخ؟..

لقد أصبحت رغم أنفكم جزءا من طبيعتكم في هذا المكان، تتغذون على حضوري، وتملأون رئاتكم بانتصاراتي عليكم، وتسكرون ببطشي كما يسكر المخدر بمجرد شم دخان الحشيش...

*

الملوك هكذا لا أحد يريدهم لكن الجميع يتقبل وجودهم كما لو أنهم ضروريون كالخبز والماء والهواء واللعب... يجلسون على رؤوس العباد ويفرضون أنفسهم كمستلزمات لابد منها للبقاء على قيد الحياة... وينتهون بالناس إلى القناعة بأنهم لولا ملوكهم ما كان هناك معنى لوجودهم!؟.

الفارق الوحيد بيني وبين الملوك الآخرين هو أنني لا أتدخل أبدا في حياة رعاياي، ولا تهمني أبدا مشكلاتهم ومعاناتهم وهمومهم... ولا أصرخ أبدا في وجوههم اعملوا كذا أو لا تعملوا كذا... هذا لا يهمني مطلقا... ففي نهاية الأمر أنا من المؤمنين المقتنعين بالديمقراطية، ومن حق الشعوب التي تدفع الضرائب بانتظام أن تعيش حرة وتتدبر أمرها بنفسها...

من هذه الناحية، ربما أيضا كنت بشكل من الأشكال محظوظا، فرعاياي الأعزاء أعرف أنهم صبورون كجمال

قدرهم أن يقطعوا الصحارى ويتحملون مشاق مناظرها الرتيبة بلا مبالاة... ويفهمون جيدا أن مهمتي معهم محددة سلفا وواضحة بشكل معلن: اجتباء الضرائب والانزواء بعيدا داخل أدمغتهم الشقية... هناك في أكثر المناطق حساسية للضوء والمعرفة!. أما الباقي في حياتهم اليومية فيتولون هم تدبيره بمفردهم.

طبعا هذا لا ينطبق على الجميع، وهو ما ينغِّص بعض الشيء حياة الملك... ذلك أن بعض الناس في هذا المكان يتوهمون أنهم ولدوا ملوكا، أو ورثوا عروشا عن آبائهم، أو على الأقل لديهم سطوة كافية كي يتناسوا وجودي أحيانا ويتهربون من دفع الضرائب... وهذا بالفعل مؤسف! ذلك أنهم يحفِّزون الدوافع الشريرة فيَّ يدي لتستعمل مكائدها التي أتلافى استعمالها في الغالب لأنها تحرمني في كل مرة، بحكم قسوتها، من دافع ضرائب جديد.

لقد جرَّبت أحدهم منذ سنوات قليلة ماضية. كان شخصية خطيرة في جمهورية النهار... وضع البنوك والمخازن العمومية كلها تحت إمرته بشراء بعض النوايا السيئة، وراح يتصرف فيها بتجاهل تام لوجودي. كان محصنا روحيا ضد أي إحساس بالذنب، وكان يعلف الأوراق النقدية كما تعلف الشعير ثيران الحرث... عقد صفقات مشبوهة على مرأى من أعوان الحكومة، وباع ذمم الناس في المزاد العلني، وسمح مرة لزوجته أن تخونه مع غريمه نكاية فيه، وكان يطلب بين الفينة والأخرى من الحاجة قمير تطعيمه ببعض بناتها الجميلات كي لا يموت زهقا في هذه البلاد، كما يقول...

قدت حافلة فيها عشر بنات متنكرات إلى الفيللا الفخمة التي يملكها في الضواحي للاحتفال بعيد ميلاده. كانت الفيللا أشبه بثكنة عسكرية مسيجة بالحرس والبنادق وأجهزة الإنذار... وعندما أخبروه بأن الحاجة قمير أرسلت له عشر بنات دفعة واحدة للاحتفال بعيد ميلاده قال باندهاش:

- ليه، متى ولدت أنا؟

قال رئيس الحرس:

- إنهن في غاية الأناقة سيدي!..

كشر عن أنيابه وابتسم:

- هذه القحبة القديمة سأعلق لها رتبة جنرال...

انفرد به الشباب المتنكرون في فساتين نسائية، وربطوا خصيتيه بسلك الهاتف، وانتظروا أوامري..

بكى بين يدي برعب وأقسم أنه لم يسمع باتفاقي مع رعاياي بدفع الضرائب آليا حالما يقبضون أول قرش في حياتهم حتى ولو سرقوه من محافظ أمهاتهم!؟

لكنني ككل ملك يقوم بواجبه أرسلته مشيا على الأقدام إلى ثلاجة حفظ الجثث بالمستشفى الكبير.

لقد اعتبرت دائما، وأنا على حق، أن التسامح مع المتهربين من الضرائب لا لزوم له، لذلك طاردتهم بكل ما أوتيت من قوة وعبث، اقتلعت خصي بعضهم كي أقطع سلالتهم من التوالد في مملكتي، وحرَّشت بعضهم على بعض ليتآكلوا كالكلاب، وبعت بعضهم في أسواق الشرطة والقضاة، وسربت ملفات بعضهم لصحافة الفضائح، وغسلت بعضهم من ذنوبه في الغسالات العمومية، وخرجت لبعضهم من خزائن غرف النوم لأهددهم

بارتكاب أفعال مخلة بالحياء معهم، واعتبرت كل ذلك نوعا من الواجب الملكي الذي يستدعيه نظام حكم صارم...

أما الذين تعنتروا علي فقد أرسلتهم سيرا على الأقدام إلى ثلاجات مصلحة حفظ الجثث بالمستشفى الكبير.

لست قاسيا، ولا حتى أتلذذُ بالقتل، غير أن الواجب يدعو الملك المحنك إلى التنازل أحيانا عن دافع ضرائب كي لا يخسر الكل.

*

هناك قاعدة أسست الممالك المحترمة ويجب عدم الاستهانة بها مهما كانت الظروف... إنها النظافة!.. كلما كانت يد الملك نظيفة كلما نام قرير العين...

المملكة النظيفة أشبه باليد النظيفة والتي تشبه بدورها السريرة النظيفة، كلما وفَّر لها الملك فرص التطهير أكثر كلما نام بأقل ما يمكن من كوابيس...

لقد اعتقدت دائما أن الملك الناجح هو من يأخذ وقتا كافيا للنوم!..

كل الملوك الذين تطاردهم ليلا جثث ضحاياهم عليهم أن يغسلوا أيديهم بشكل جيد قبل النوم أو ينامون نهارا كحل أسوأ...

لقد قدرت، وأنا على حق، أن من واجب الملك الحفاظ على نظافة مملكته من الحشرات والأفكار الفاسدة والأظافر الطويلة، فالممالك التي تجوب شوارعها الجرذان على سبيل المثال تكون أوراقها النقدية عرضة للقرض والنهش... ولذلك عليه مرة بعد المرة أن يتكرم بغسل بعض أطرافها بالماء والصابون كي يطرد الأمراض من حولها...

لذلك قررت أن لا أوسخ يدي ولا صورتي أبدا أمام جماهيري... اشتريت قفازا حريريا، وصنعت من وجوه رجال آخرين أقنعة ألبسها حين أريد القيام بمهامي الوسخة... واهتممت دائما بترتيب هندامي قبل خوض أي عملية تطهير...

قلت دائما أن من العيب أن يصافح الملك دافع ضرائب بيد متسخة حتى ولو كان من بعض هواياته مثلا سلخ جلود ضحاياه شخصيا، ذلك أن دافع الضرائب مهما يكن يستحق بعض الاحترام، خاصة إذا كان لا يتأخر في الدفع...

الرهان الكبير الذي نواجهه يوميا في عملنا المتعب والخطير هو النظافة... علينا أن نرمي يوميا في الغسالات الكهربائية أثواب المعركة ووجوه الضحايا وبقايا الضمير التي لم نشف منها كما ينبغي كي نستطيع أن ننهض كل يوم مرتاحين من ثقل الأمس...

إنني أعترف بأنني مجنون نظافة، وأنا على قناعة تامة بأن أعظم ما اخترعه البشر، بعد المسدسات طبعا، هو الغسالات الكهربائية: كمشة من الصابون والماء المغلي وبعدها يخرج خصمك نظيفا معطرا وعاقلا...

لا شيء يغسل مخ الإنسان من الأفكار الجامحة مثل الغسالات الكهربائية!. وأفضل ما في ذلك كله أن يدك تبقى نظيفة وتستطيع أن تأكل بها أو تُعدَّ بها رزمة جديدة من الأوراق المالية...

وحينها ستولد كل صباح جديدا...

ويكون قلب الطفل الذي تحمله بين جنبيك سعيدا ومرتاحا.

هكذا الحياة في مملكتي: إذا استطعت أن تصل حتى الخامسة والثمانين من العمر برأس فوق كتفيك، وخصيتين عالقتين بين فخديك، ورصيد مالي محترم... فأنت حققت سعادة المواطنة، وقبضت على رقبة الدنيا بكل أصابعك... ويمكنك بعدها أن تموت مطمئنا من غائلة الملك الذي سطا على إرادتك وأكل عمرك!..

*

6

صناعة مملكة ليس بالأمر الهيِّن. البعض يتوهم أنها تبنى مثل أعشاش الطيور عشبة عشبة، وآخرون يعتقدون أنها تنبت من أعماق الأرض مثل أشجار القندول شوكة شوكة حتى تصل إلى قمة الجبل...

قد يكون هذا صحيحا بالنسبة للشعوب المنتصرة، أما شعوب مقهورة مثل شعوبنا فمن الأفضل أن ينزل الملك على رأسها مثل القضاء والقدر، مثل شرٍّ لابد منه، مثل صدفة غير محسوبة العواقب... ذلك أن الشعوب المقهورة في الغالب شعوب مريضة، تتضخم فيها الذات، ويظن كل شخص في نفسه أنه هو الملك، ويزهو الأمل على رؤوسهم الصلعاء كالأعشاب الضارة في حقول الشعير..

وطبيعي أن من يطمح لإدارة شعب بمثل هذه الرعونة، يحتاج إلى وقت طويل، وقد يقضي عمره في جمع قطع البوزل غير المتجانسة... وهو ما يحدث في جمهورية النهار ويؤثر دائما على استقرارها!..

من جهتي بنيت مملكتي في رأسي كاملة قبل أن أهبط بها إلى الشارع كقدر لا يمكن التهرب منه... كضرورة لا مناص منها... كظاهرة طبيعية تصاب بها الأمم سيئة الإدارة..

لم يكن برنامج العمل معقدا ولا ذا تفاصيل زائدة، طبقته على علاته هكذا: تنظيف طريقي من النفايات البشرية... والقبض على الأرصدة السمينة لتدعيم عرشي... أما ما عدا ذلك فيقوم به عمال نظافة المدينة الذين أدفع لبعضهم رواتب عالية لتنظيف الشوارع من النوايا غير المفيدة، ومتابعة وتعقب الرؤوس التي تينع قبل الأوان!؟

علي أن أوضح شيئا مهما بهذه المناسبة السعيدة: في بعض الممالك القديمة يولد ابن الملك ملكا حتى ولو كان أبلها أو فنانا... لكن في مثل ممالكنا التي نخترعها من العدم ونبنيها بأيدينا الطويلة جثة جثة فمن الضروري أن يتجرد الملك من كل عواطفه وأخلاقه وشحمه ولا ينمي فيه سوى الذكاء والعضلات التي يضرب بها خصومه.

من جهتي ذهبت أبعد من ذلك...

فحين يفكر رجل يهب حياته لبناء مملكة في المسؤوليات الجسام التي عليه أن يتحملها، سيفكر بالشكل التالي: كيف يجعل الناس يكتشفونه كما لو أنه قادم من كوكب آخر... كائن آخر له شكل هلامي يتجاوز خيالهم، وقوة لا يطيقون صبرا على وجعها، وذكاء خارقا باستطاعته أن يفسد كل منجزات ذكائهم التماثلي الذي يصنع حياتهم العادية!!

هكذا خرجت في لياليهم الآرقة بدون اسم، ولا تاريخ، ولا إعلان مسبق... فجأة وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الغول... أمام كائن خرافي يمكن أن يطلق النار حتى على من يقول له السلام عليكم!. ويمكن أن يدمر جبلا في بحثه عن فأر لم يدفع الضرائب... كما يمكن أن يحرق حانة لمجرد أن زبائنها ليست لهم أرصدة في البنوك...

نشرت خريطة المدينة أمامي وبدأت في إعادة هندسة طرقاتي... بالمناسبة الطرقات النظيفة مثل النوايا النظيفة، تسمح للملك بالمرور بسهولة إلى عرشه!.

أبعدت الحانات الكئيبة التي لا يؤمها سوى الهاربين من طنين زوجاتهم أو من حقرة رؤسائهم في العمل... وأقصيت الموظفين الصغار الذين ينامون باكرا!..

ثم أبعدت أغلب أولئك الذين على علاقة بالقانون دراسة وتطبيقا، ذلك أن القانون - كما هو معروف - حالما نعرفه نصبح جبناء ومترددين وخائفين أن يقبض علينا متلبسين بعقوقه...

وأخيرا المتثاقفين الذين لا يكفون عن زراعة الشك والأخلاقيات والقيم التي لا تنتج مالا جيدا ولا سفلة جيدين...

هكذا وجدت نفسي وجها لوجه مع أغوال المدينة الذين سيصبحون بعد قليل أصدقاء لا تبتسم فيهم سوى مواسير مسدساتهم...

*

إنني أعزو انتصاري الأول والكبير على نفسي بالدرجة الأولى لحرفة المحو العالية الدقة التي قمت بها قبل خروجي إلى شوارع الليل... صحيح أنني كنت مسلحا بصلافة لا تخفض عينها، وتجربة على اللعب لا يستهان بجديتها وكتيبة من المعتوهين الذين أطلقت أيديهم في أرواح وأرزاق الناس... وبعض المكائد التي حولت حياة بعضهم فجأة إلى جحيم لا يطاق. لكن المفاجأة الكبيرة، كما يقولون في نظرية الحروب، هي بالذات الضربة المفاجئة...

لم يستطع أحد أن يفهم كيف سقطت قطعة من السماء على رأسه... أو كيف انكسرت قائمة كرسي الحانة تحت أليته... أو كيف رُكل على مؤخرته ولا أحد يقف وراءه؟!

كان الجميع مشدوهين... حائرين... فاغري الأفواه كمجاري المياه في المدينة... وكان الكثيرون يتكهنون بهذا الشكل الذي لم يلمس أحد حدوده ولا حواسه: لعله ولد صدفة من الرعد... لعله كحيوان السمندر فاض به البحر... لعله ثعبان بسبعة رؤوس جاء من صحرائنا القاحلة... لعله!!

لكنني متأكد أن البعض منهم كان سعيدا ويقول بتشف: أخيرا سيتم تنظيف هذه المدينة من الأوبئة التي غزت ليلها...

وبالمقابل كانت الشرطة تركض وراء الأحداث التي كنت أنشرها في أماكن مختلفة في نفس الوقت... والقضاة يتشممون خطاي ككلاب صيد... وبعض مدراء السجون فتحوا أقذر زنزاناتهم ووقفوا على أبوابها في كامل الاستعداد...

علي أن أعترف هنا أنني كنت قبل كل هذا، وقبل أي خطوة اقترفتها فيما بعد، قد جلست إلى نفسي خمس سنوات كاملة في زنزانة منفردة بسجن العاصمة الشهير بقسوته حين شكّت الشرطة مجرد شك بارتكابي جريمة سرقة مسدس عمي كعوان الذي مات مختنقا بلعابه، كما يقولون، على صدر مومس كانت للصدفة عشيقة وكيل الجمهورية، وللصدفة أيضا، ضربتها مرة على خدها فتركت خدشا عميقا ظل يؤلم الوكيل حتى ألقى القبض علي في شباك عدالته التي لا تفك...

جيء بي مكبل اليدين والفم إلى قاض لم يكلف نفسه عناء النظر إلي مطلقا، ولم يسمع كلمة واحدة من الصراخ الذي كنت أطلقه وراء الكمامة الخانقة: أنت خراء يا حضرة القاضي المحترم... قال: خذوه على غرفة العمليات حتى يعترف!؟ ثم نسيني...

غرفة العمليات كانت عبارة عن قبو مظلم في قاع المحكمة، يمر عليه في الغالب ليوم أو يومين كل المحكومين ليضربوا على

مؤخراتهم قبل أن ينقلوا إلى سجون مريحة فيها مفارش وأغطية وتلفزيون ومخدرات وأكل كاف ومحامون يتابعون قضاياهم...

أما أنا فقد نسيني القاضي عنوة، قائلا بسخرية لتلك التي تدّعي أنها أمي: لا تقلقي يا أمي، عندما يحدث خدشا عميقا في روحه سأتذكره!..

*

النسيان الذي أنعم الله به على البشر كي لا يموتوا قنوطا ويأسا من خطاياهم أو من ظلم العدالة،، يتحول بين يدي بعض القضاة إلى موت بطيء ينتظر الإنسان فيه أن يمد قاض تافه يده إلى جيبه لعله يتذكره... لكن... القاضي ينساه حتى يتعفن...

غير أن تلك السنوات لم تكن بالنسبة لي بالضبط سنوات تعفن، على العكس كانت سنوات تدريب الحواس على الرؤية في الظلام وبين أظلاف الظلم... إنها لم تحدث خدشا عميقا في روحي بل نزعت روحي من تاريخها المرئي... ألغت حاسة النظر للتعرف على سطل البول... وحاسة الشم لعدم الاختناق من الروائح الكريهة... وحاسة السمع لعدم التقاط أصوات الحياة... وحتى حاسة الذوق التي أنعم الله بها علينا لإشفاء ملذاتنا... وعلمتني كيف أتحسس طريقي في صحراء تلك السنوات الخمس بيدي... يدي التي أصبحت كلي... عيني وأنفي وأذني... بها أذهب للمرحاض، وبها أتذكر روائح الربيع، وبفضلها أعزف في الليالي الطويلة أغاني قديمة كي لا أموت سأما وقنوطا...

قلت دائما أن مترين مربعين يكفيان في بعض الأحيان لصناعة مصير كائن، خاصة عندما ينسوه لأسبوع دون طعام

فيضطر لأكل الجرذان التي تزاحمه على فراش القش... الجرذان على فكرة لحمها أقرب في مذاقه للحم الأحمرة وليس الأرانب... يا للذوق السيئ للقطط؟! لكن على الإنسان أن يبقى على قيد الحياة حتى ولو أكل الجرذان...

كان عزائي الوحيد في ذلك الليل الدائم أنني كنت بين الحين والآخر ألتقي برجال حكماء أصبحوا ربما بفعل التفاهة مجرمين... لقد تعلمت منهم بالدرجة الأولى تلك النكتة الجزائرية الفريدة من نوعها عن قروي جاء يسأل عن دار العدالة، فأجابه المواطن الدار هاهي يا ابني أما العدالة فلا أعرف أين تقع؟.

لكنني أيضا تعلمت منهم كيف يمكن لليد مثلا، وهي حاسة لمس معروفة، أن ترى في جوف الظلام ورقة من فئة ألف دينار تنام في قعر خزانة فولاذية.. وبالطبع أن ترى اليد ليس تماما مثلما ترى العين!.. اليد تتحسس وتقبض بينما العين تدمع وتحسد... ويقول أحدهم ضاحكا: ماذا نفعل بآذان طويلة كآذان الأحمرة إذا لم ندربها على شم رائحة مؤامرة كمؤامرة تهرّب من الضرائب مثلا؟ ماذا نفعل بفم نأكل به أو نقبل به النساء فقط، يا للفجاجة!.. الفم جهاز علك ممتاز للخصى المتعجرفة؟ ماذا نفعل بعينين اثنين إذا كنا نستطيع أن ننام بواحدة فقط ونرى في الضلام بواحدة فقط؟..

كانت تلك الدروس المجانية عزاء رائعا يمكن للإنسان الذي لديه استعداد أن يتحسس بها طريقه في عتمة هذه الحياة كما تحسس أوديب المطرود من مملكته طريقه متوكئا على كتف ابنته... الفارق الوحيد هنا أن أوديب كان حينها يخرج بفعل

خطاياه من مملكته إلى الخلاء بينما أنا بفعل خطايا آخرين كنت أخرج من الخلاء للدخول إلى مملكة متروكة على عواهنها...

*

لقد ألقيت من جحري ذاك نظرة ثاقبة متفحصة على نفسي بالدرجة الأولى، أنا الكائن الذي يمكن نسيانه ببساطة في جحر مظلم تحت ردفي دار العدالة، وبعد ذلك على أنواع الزوار الذين يأتون ليركلوا على ألياتهم لبضع ساعات أو أيام ويرحلوا،، ومن ثمة صعدت نظري مليا في مجتمع كثيرا ما يكون بعض مجرميه أقل رعونة من بعض قضاته...

إن الفكرة الخطيرة التي يخرج بها الكائن المنسي هي الانتقام لوضعه وهذا ما يجعله لقمة سائغة لخصومه... أبعدت هذه الفكرة تماما، وتصرفت كملك.

من المعروف أن الشباك التي تنصبها العناكب متقنة الحبكة وهذا ما يجعلها في رأيي هشة ومرئية. أما الشباك التي ينصبها الملوك فهي ككبة خيط عظيمة لعبت بها القطط، لا أحد يعرف بدايتها من نهايتها، وهذا ما يجعلها عصية على متابعة وتعقُّب الآلة الجهنمية لجمهورية النهار... وكان علي من ذلك الجحر المعتم أن أرمي بكبة الخيط بين أقدام أكثر المجرمين صلافة والذين كانوا يمرون على جحري ليركلوا على ألياتهم لبضع ساعات أو أيام ويرحلوا...

قلت سابقا لأحد حراسي أن هذا الجحر الذي يشبه السوأة تحت دار العدالة يمكن له ككل سوأة أن يلد حيوانات لا تغض الطرف...

ورد ساخرا: نحن أيضا لدينا سجون تلتهم أكثر الحيوانات شراسة...

غير أنه ذات يوم خبط بعقب بندقيته على باب القبو الحديدي: انهض يا حيوان، هيا أعد حقيبة السفر لأن القاضي المحترم تم نقله إلى محكمة في الضواحي وليس لدينا في هذه المحكمة ما تأكله؟

اعتبرت نفسي محظوظا وخرجت...

كان علي حينها أن أفي بقسمي الذي أقسمته آلاف المرات وأنا أمشي آلاف الكيلومترات في تينك المترين المربعين: سأجعل من هذا البلد قفصا مساحته متران مربعان...

بالطبع قمت منذ البداية ككل ملك عظيم يعرف مسبقا أنه سيكون محط إعجاب ومتابعة من طرف الآلة الجهنمية لجمهورية النهار بمحو آثاري في دواليبها الإدارية... محوت اسمي وعناويني السابقة من إضبارات الشرطة وملفات دواوين الحكومة وذاكرة الناس الذين عرفوني سابقا كطفل في بيت الحاجة قمير... تخليت على محتوى كل الكتب التي قرأتها... ثم قمت بإرشاء موظف تافه بقسم الحالة المدنية بالبلدية ليستخرج لي شهادة وفاتي... وبنفس الرشوة استخرجت بعض بطاقات تعريف بأسماء مختلفة... ثم اختلقت حادثا صغيرا للموظف محقت به وجوده الصغير كي لا يبوح أبدا بهذه المعلومات سواء تحت تأثير آلات التعذيب أو تحت تأثير الثرثرة في الحانات... وغادرت وجهي السابق إلى وجوه قشرتها كحبات برتقال من خصوم مفترضين... وأعلنت نفسي ميتا في حادث حريق شب بمدينة تبعد ثلاثين كيلومترا عن مقر إقامتي...

خططت كل شيء بدقة، وبحساب مسبق لخصوم ألداء لن يرحموا فيَّ أي غفلة أو عاطفة باقية من ماضي البعيد،، ثم اختفيت تماما من جغرافية جمهورية النهار واخترت الليل كمملكة ممكنة للعيش بجدية وثراء...

*

كم هو رائع أن يتعرى الإنسان من ماضيه... مرة وإلى الأبد يمر أمام مزبلة عمومية فيرمي بقميصه القديم ووجهه المتداول وبضع ذكريات مؤلمة... ثم يمضي خفيفا إلى عمله المضني... لا أحد يعرفه... ولا أحد يُعيِّره بماضيه... ولا أحد يرفع عليه يده فيضطر إلى كسرها!؟

مشكلة الملوك هي ماضيهم. كلما كان الملك مثقلا بالماضي، كلما كانت خطواته تلتصق بالأرض الموحلة... الماضي أشبه ما يكون بحذاء قديم يلبسه الإنسان فقط كي لا يقول عنه الناس أنه يمشي حافي القدمين... أما ذلك الاعتقاد القديم الذي يعتبر أن من لا ماضي له لا مستقبل له، فهو مجرد وهم يوهمنا به الآباء كي لا نتنكر لجميلهم...

لقد دربت رعاياي على رمي ماضيهم في سلة المهملات ومواجهة الحاضر بشجاعة وخفة. لا أعرف من قال مرة أن المستقبل فكرة قديمة وعلينا أن نفكر في الحاضر أولا!. وهذا رأيي... الإنسان ليس ماضيا ولا مستقبلا وإنما هو حاضر... حاضر فقط دون أبعاد ولا أفكار مسبقة... الإنسان هو هذا الواقف هنا... يتحرك... يعمل... يدفع الضرائب... يعاكس امرأة عابرة... يضع يده خطأ في جيب إنسان آخر... هذا هو الحاضر... أما الذين يعيشون كما أقول لرعاياي على فاكهة الأسلاف أو آمال غير ملموسة، فإنهم يبيتون جوعى.

أعرف أن سلخ الماضي من ذاكرتنا أشبه ما يكون بسلخ الجلد في قبو دار العدالة... مؤلم وقاس وقد يعصر الدمع من العينين... لكن الإنسان في مثل ممالكنا عليه أن يتحمل سلخ الجلد بصبر وتأس وإلا سيقضي عمره عاريا وهو يعتقد أن الملابس تغطي عورته.

قلت في السابق أن الملك هو الحسم... ومن لا يحسم مع ماضيه لا يمكن أن يحسم مع أي شيء آخر... وحين قررت أن أخترع حكومة تساعدني على إدارة بعض شؤون رعاياي وضعت بين شروط الترشح لمناصب الحكومة الرشيدة شرط رمي الماضي في أقرب القمامات العمومية والتجرد لمهمات الحاضر بخفة يد وحماس منقطع النظير...

إنكم تستطيعون أن تسألوا من تشاؤون عني من رعاياي... الكل يعرفني... والكل لا يعرفني... إنني هنا حاضر بينهم... موجود في أدمغتهم... موجود حتى في الأوراق النقدية التي يتزينون بها... لكنني في نفس الوقت بعيد... عال... غامض... يمد أي أحد منهم يده ليتبرك بملامستي فلا يلمسني... يبحث عني القتلة والخصوم لتصفية حسابهم معي لكنني أتبخر بين أيديهم كما تتبخر سكراتهم حين يرونني..

إنني أعيد ذلك كله لموهبة المحو الفائقة التي أصنع بها حاضري... وأضع من خلالها ماضي في سلال المهملات العمومية...

صحيح أنني لم أجد بين رعاياي من تنطبق عليه هذه الشروط بسهولة، لكنني ككل ملك جاد وصارم قمت بثقب بعض الرؤوس التي أنست فيها الخفة الكافية، وجلخت مخلفات الماضي عليها

كما يجلخ الإنسان الأوساخ القديمة من على وجه عملة أثرية، وبدأت أدربهم على التنكر الجميل لكل ما يثقل خطواتهم وهم في طريقهم إلى المال... غيرت للبعض هوياتهم، وقمت بجراحة تجميل، أو تشويه في الحقيقة، للبعض الآخر... وأخرجت بعض أبناء الحرام من ماضيهم المخجل وحولتهم إلى آدميين قادرين على علف الأوراق النقدية... وغيرت أزمنة البعض من كائنات نهارية تتسكع في طرقات البطالة إلى حراس يقظين على الأرق العام لدافعي الضرائب في مملكة الليل...

وفي كل ذلك سهرت دون ملل ولا كلل على المحو المنظم لأثر الماضي والمستقبل معا على حاضرهم، ونهوضهم كل يوم من نومهم جديدين وكأنهم ولدوا للتو من جهاز مصرفي.

*

هذه هي فلسفتي في الحياة: كلما غيَّر الرجل اسمه أو وجهه كلما كان متحررا أكثر، وقد لا يعرف نفسه فيما يرتكب من حماقات وأعمال مخلة بالحياء... أما إذا كانت لديه الشجاعة الكافية ورمى أوراق هويته في سلة المهملات فإنه يشعر حينها أنه ولد من جديد!.

في الماضي اخترع الناس الحفلات التنكرية للتحرر ولو مؤقتا من وجوههم الاجتماعية التي تثقل كاهلهم... إنهم حينها يستطيعون أن يُحركوا بحرية أجسادهم الشحيمة كما تقول لهم أرجلهم وليس كما تقول إيقاعات الرقصة... ولا يجد أحد غضاضة في أن يهمس في أذن زوجته: ياه، لك مؤخرة تستأهل الضرب!.. أو يهمس في أذن زوجة جاره: أنت شهية كحبة بطاطا مسلوقة... هيا ألحقيني للحديقة كي ألتهمك!.. وتضحك هي باستهتار مقصود: ألتهم أمك أو أختك!.. هي متنكرة وهو متنكر... ولا أحد يعرف

الآخر... وهما بذلك متحرران فيما يفعلان!.. لقد تجردا أخيرا من وجههما الاجتماعي الثقيل بماضيه وإرثه وأصبح بإمكانهما أن يستمتعا بخفة وجودهما اللانهائية.

الآن في ظل التكاثر الخطير للأيدي الخفيفة، وغياب تقاليد الحفلات التنكرية الحميدة، لم يعد من الممكن الاطمئنان للأقنعة الواقية الخارجية، فقد يخطفه أي أحد منك، خاصة إذا كان جيد الصنع، وتجد نفسك في وسط الجموع مفضوحا عاريا كما لو أنك خرجت من الحمام للتو ونسيت رفع سروالك...

هكذا دربت رجالي، أولئك الرجال الذين رُكلوا على مؤخراتهم في القبو تحت دار العدالة، على إعادة اختراع وجودهم من جديد... ذهبت إلى أقسام الحالة المدنية لأشتري لهم شهادات وفاة مسبقة، وببضعة دنانير أخرى اشتريت لهم بطاقات تعريف جديدة... اخترعت لهم أسماء وآباء وأمكنة وأزمنة ميلاد... وأقحمت بعضهم في غسالات كهربائية لتنظيفهم من أوساخ ماضيهم... ثم أرسلت الجميع في الليالي الحالكة لحراسة ذوي النوايا المتأهبة لنكران وجودي الرائع على رؤوسهم الفارغة.

ها هو ما يجعل الملك غير محتاج في مملكته مثلا للمؤرخين ولا لحراس الآثار، أولئك الذين يجعلون من الماضي مهنة يتقوَّتون منها ويعكِّرون بها صفو حياة البشر بتذكيرهم الدائم بماضيهم المقيت...

على الملك أن يصنع ذكرياته يوميا ويمحوها يوميا بالممحاة أو بغسلها بالماء والصابون... لا أحد يُذكِّره بأنه كان نذلا منذ

قليل، أو اقترف جريمة في حق رعية ليس لديه ما يدفع به الضرائب... وعليه أن يتحلى بالشجاعة الكافية كي يولد صباح كل يوم نظيفا كما لو أنه قطعة نقدية ولدت للتو من جهاز مصرفي...

*

7

كان هاجسي الأول وأنا في طريقي إلى العرش، اختصار الطريق إلى العرش! ففي مثل هذه البلدان غير المعبدة الطرقات يحتاج الرجل إلى من يحمله على كتفه لتوصيله إلى هدفه، كأن يرث العرش أبا عن جد، أو يزجَّ به والده الرئيس في منصبه برئاسة الجمهورية قبل موته مباشرة، أو يجد آلة جهنمية كحزب أو قبيلة أو إشاعة جيدة الصنع لتزوير إرادة شعبه...

من جهتي شجعت الرجال دوما على السير بأقدامهم سواء صعودا إلى العرش أو هبوطا إلى مصلحة حفظ الجثث... ألم أقل دائما أن من المهم أن يكافح الإنسان بشراسة من أجل مكان له تحت الضوء، حتى ولو كان هذا الضوء هو آباجورة في غرفة نوم؟..

نعم، كان من واجبي أن أختصر المسافات وأمشي إلى مملكتي من أقصر الطرق، حتى وإن كانت أصعبها: طريق جهنم!.

لقد فكرت طويلا في الموضوع: الملوك لا يستطيع أحد أن يتكَّهن بأعمارهم... قد يموتون في أي وقت غيلة أو تسمما أو تحت ثقل مشاكل شعوبهم؟ وبما أن طريق الممالك في الغالب طويل وشاق فقد قررت عن طيب خاطر: الاكتفاء فقط بإدارة النوايا السيئة للرعايا... أما الشعب الطيب فسأتركه لحكومات جمهورية النهار تتدبر أمرها مع مشاكله...

النوايا السيئة هذه شبهتها بمخلوقات عجيبة تتواجد مثل الدودة الشريطية في بطون كل الشعوب، تعيش في البداية كطفيلية صغيرة مهينة وتكبر مضغة بعد مضغة حتى تصبح في حجم الأمعاء... ثم تصبح هي الأمعاء تبتلع كل ما تتغذى عليه الشعوب وتمتص فوائد كل الأطعمة، فتصاب الشعوب في البداية بمغص ثم يتطور المغص إلى فقر دم، وأخيرا يتطور فقر الدم إلى فقر في الذكاء... وتصبح الشعوب حينها قابلة لظهور الملوك السفلة...

لقد تأملت زبائني بعين لا تغمض، ودرست بشكل جيد نزقهم وانفعالاتهم وخفة أيديهم ورؤوسهم، لم أترك شيئا للصدفة معهم. الصدفة كما تقول نظرية الملك قد تكون قاتلة إذا لم تخترعها أنت، وقد اخترعت صدفي حسب مشيئتي كي أجيء دائما في الوقت المناسب، وأقبض على خناق النوايا السيئة في الوقت المناسب.

تلك النوايا السيئة هي المثمرة بالنسبة لي، أما الشعب الطيب ذو النوايا الحسنة فسأتركه لنفسه يعاني من مشاكل الازدحام في الطرقات وخطوط المواصلات والاتصالات، ونقص الغذاء والدواء، وسوء المعاملة الإدارية، واحتقار الشرطة وموظفي الحكومة... و... و... أي تلك المشاكل الصغيرة التي لا تثير انتباه سوى الذين يعانونها، وفي نفس الوقت تملك عليهم وجودهم فلا تترك لهم فرصة لرؤية جلاديهم.

*

علي أن أعترف هنا أن عملا دائبا ومتقنا خاضته دون هوادة جمهورية الموظفين الصغار لتعكير صفو الحياة، وخلط أوراقها

الإدارية بشكل لا مثيل، له، وصناعة آليات وظروف شيطانية رائعة للرشوة والمحسوبية والتهاون والبيروقراطية والكذب... الخ. تلك المواد التي لابد أن تتوفر بشكل واسع لزعزعة استقرار بلد كامل، وتوفير مناخ حار لظهور بكتيريا العصابات، والجريمة المنظمة، ورياضة القفز على القوانين، وآداب القتل بأعصاب باردة، وسياسة الربح السريع...

وحين يظهر ملك موهوب للسلطة مثل حضرتنا لا يجد سوى أن يشكر بامتنان عميق كل أولئك الفئران الذين قاموا في دواليب الوظيف العمومي بقضم كل أخلاقيات المهنة لتسديد ديونهم الشهرية لدى دكاكين المواد الغذائية وأكشاك التبغ وحانات جعة الحنفيات وربما تلبية الحاجات غير الضرورية لزوجاتهم المتقلشات.

قلت دائما على الملك أن لا يأبه بالموظفين الصغار وإلا سيقضي عمره في تلبية حاجاتهم التي لا تنتهي، كمطالبهم الدائمة بتحسين ظروف عملهم السيئ، ورفع رواتبهم بالموازاة مع غلاء المعيشة، وربما تزويجهم لأنهم غير قادرين على إقناع امرأة بجدواهم!..

على الملك أن يذهب مباشرة إلى هدفه، إلى قبيلة الشطار حيث يختار منهم أدعياء الزعامة ويعلك خصاهم حتى تنزف عيونهم دما وبعدها سيتكفلون هم بعلك الشعب الطيب...

إن شعبا طيبا لهو سيء الإدارة بشكل مضجر، فأنت تحتاج دائما إلى جهود جبارة للتلاعب بعواطفه لحماية سلطتك، وربما تحتاج إلى مستشارين وكتبة لتدبيج خطب رنانة، وهذا بالنسبة

لي مضيعة كبيرة للوقت... ونصيحتي للفاسدين القادمين ألا يتنازلوا أبدا لإدارة طيبة شعوبهم بالخطب وإلا سيكونون كمن يدير جمعية خيرية تجمع الأموال بجهد جهيد كي تقوم في نهاية المطاف بتوزيعها على الآخرين... أي جهد عبثي هذا؟!

الملك الحقيقي في رأيي هو من يأمر وليس من يخطب... هو من يجمع الأموال فقط ولا يوزع منها إلا ما يأتيه بأموال أخرى أعظم وأثمن...

ربما يُعتبر هذا لدى الشعوب الطيبة الساذجة: استغلال نفوذ؟! كما كتب أحد محافظي الشرطة في أمر القبض علي حيا أو ميتا، غير أنه في الحقيقة استثمار من نوع الشر الذي لابد منه...

ما يجعلني فوق كل اشتباه هو بالذات هذا القانون: ترك الشعوب لذاتها حتى تنقرض بداء سوء الاستعمال... ثم الانفراد بمن يوقعون على الصكوك...

*

من المعروف أن الممالك العظيمة تديرها الضباع ذات الأسنان الجيدة الرصف...

لا توجد ممالك حقيقية في رأيي تدار حسب نوايا وحاجات الشعوب إلا إذا كنا نصدق قصص ألف ليلة وليلة أو تربينا على أفلام الكرتون التي نشاهدها بكثافة في تلفزتنا الحكومية...

كما لا يوجد ملك حازم بدون أسنان جيدة الرصف. ذلك أن الفم الشائك السلاح يمضغ الضحايا بشكل جيد محترم لكي لا يترك لهم فرصة الغصِّ في حنجرته ولا الضغط على معدته، وفي نفس الوقت يتأكد من صلابة المعادن التي يبتلعها...

لقد حدث هذا آلاف المرات: يعبر الشارع مواطن ساذج فيجد صدفة سلسلة ذهبية سقطت من مواطنة ساذجة أخرى فيأخذها ككل الطيبين إلى محافظة الشرطة في زاوية الشارع لعل صاحبتها ستظهر نائحة مولولة قاسمة بأغلظ الإيمان أنها استلفتها من جارتها الثرية لتتزين بها في عرس زواج أختها... يكتب المحافظ الفخور البلاغ بنفسه ويشكر المواطن على نزاهته النادرة في عصرنا ويودعه بحرارة فائقة، وحالما يخرج المواطن الساذج، يضع المحافظ السلسلة الذهبية في جيبه ويخرج غانما جذلان...

قلت لكم من قبل أن أشداق بعض الرعاع مفتوحة كإسطبلات البقر فهي تقول مثلا على مسمع من يدي الطويلة: أن مواطنا متواضعا لا يملك مصروف جيب وجد سلسلة ذهبية ثمينة وسلمها للشرطة في الشارع كذا... وهنا على الملك الجيد أن يتحرك بهدوء لمضغ أصابع المحافظ والعض على القطعة الذهبية للتأكد من أصالتها قبل ابتلاعها...

لا... الأمور لا تتم بمثل هذه البساطة التي تنشرها بها الصحف. ذلك أن بعض الصدف علينا صناعتها كالأصداف من رضاب البحر... لدي الكثير من الصدف الاصطناعية الجاهزة للاستعمال والتي استقطرتها مثل عطر الورود قطرة قطرة ووضعتها على رفوف الذاكرة في انتظار تسويقها للفاسدين الذين هم في أمسِّ الحاجة إليها.

لنأخذ إكسير صدفة جاهزة للاستعمال كي نتأكد من صلاحيتها... فقد يأتي مثلا الكولونيل المتقاعد محيرقة بوجه كظيم وقلق ترتعد له فرائصه... لقد قضى ليلة البارحة مع كتيبته

المدججة الأسنان باحثا عن عنتر في حانات ومقاصف المملكة ليسترد منه مبلغا محترما استلفه منه بفوائد عالية لتغطية صك دون رصيد في بنوك جمهورية النهار القاسية، وبلغ الأمر بعشيقة عنتر أن سفحت بعض الدموع الجاهزة خوفا على غيابه المفاجئ: لعل أحدا ما قتله ورماه في واد أو شاطئ... لعله في مستشفى ما إثر حادث مقصود... لعله!؟ وتباكت قليلا وغادرت المقصف.

انفجر الكولونيل غيضا: لا يمكن لهذه القرية التي نسميها عاصمة أن تبتلع رجلا ضخم الجثة بهذا الشكل؟

نحن نعرف أن الكولونيل عاطفي وغبي إلى حد الشفقة، ونديمه عنتر لا يستحي من أكل أمه إذا جاع... وبالتالي علي استحضار صدفة جاهزة للاستعمال...

قلت: خمسون في المائة يا كولونيل..

نفرت دمعة من عينه: هذا كثير يا جلالة الملك... لك عشرة واثنان في المائة هدية مني...

أدرت ظهري وذهبت.

راح يصرخ ورائي حين عرف أنه يفقد مبلغا عاليا بفوائد عالية: خمسة عشر يا جلالة الملك... عشرون بالمائة... خمسة و...

استدرت إليه: وأربعون... اتفقنا..!

تهاوى باكيا على قدمي:

- أنت تعرف يا جلالة الملك أن الزمن صعب والمال الكثير قليل و..

وانتهى تحت قبضتي إلى الاستسلام.

كانت الوصفة الجاهزة عبارة عن حبكة بسيطة: عندما يختفي عنتر ستدلُّ عليه عشيقته... النساء باعة الرجال صدفة!.. هذه هي القاعدة...

لكن العشيقة ككل بنات الكلب تعرف مثل هذه الحكايات من خلال المسلسلات التلفزيونية المصرية والمكسيكية التي تبدأ بفراق ودموع وتنتهي دائما بزواج البطلين في آخر الحلقة...

قررت تركها جانبا... ووضعت على كعب أختها الصغرى حارسا يتمسح خلسة بخطاها... مر يوم ويومان وجاءني الحارس ذو الأنف الطويلة: عنتر يعيش مختبئا في البيت الجبلي للكولونيل!؟ وهو البيت الذي كثيرا ما قضيا فيه ليالي فاسقة، ويستلفه منه عنتر بين الحين والآخر لخيانة عشيقاته...

فكرت أنه استثمر المال في مشروع بفوائد أعلى مما أعطاه الكولونيل الجشع، وهو دون شك ينتظر الآن نسبته المئوية قبل إعادة المبلغ متباكيا كالطفل بين يديه: أقسم برأس أمي يا حضرات العزيز عليّ كوالدي أنني بعت ميراث العائلة كي أفي بوعدي لك!!

ميراث العائلة هذا بالطبع باعه عشرات المرات في السنوات الأخيرة قبل أن تخبرني مصادري أنه لقيط تربى في بيت من بيوت الرحمة، وأخذ اسمه من الأعمال الشاقة التي كان يقوم بها، فهو لم يسمَّ عنتر تيمنا بالفارس العربي القديم عنترة بن شداد الذي لا يشق له غبار، كما يقال، وإنما للعضلات البارزة التي فتلها من أعمال السخرة التي قام بها.

الأكيد أن المشروع ليس خيريا، ولذلك قام به من وراء مصالح مرائبي. ومن الطبيعي أن أبعث له يدا من أيادي: جئني بإحدى

خصيتيه... لكنه جاءني بحقوقي كاملة مع دمعة مصطنعة: رجاء لا تخبر حضرات الكولونيل بمكاني حتى تنتهي الصفقة...

من العادي أن الكولونيل الغاضب لا يبحث عنه أبدا بين مواعينه، لذلك اندهش من تلك الصدفة التي يقال عنها أنها خير من ألف ميعاد، حين جرجرته من يده إلى بيته الجبلي للاستراحة بضعة أيام من مشكلة كبيرة اسمها عنتر.

تركت الكولونيل يكتشفه صدفة بين مواعين بيته الجبلي، وتفرجت عليه بمتعة وهو يسلخ جلده!..

وأخيرا، حين هدد عنتر وهو بين الحياة والموت الكولونيل ببيعه لشرطة جمهورية النهار، اقترحت عليه بدل ضربه كالكلب إلى حد الموت أن نعرضه للبيع هو في حد ذاته لأن ذلك سيكون مفيدا لنا أفضل : عنتر يزن بضع حوانيت مواد غذائية، وعددا من بيوت المواعيد، وإسطبلا من الثيران جيدة العلف!! قدَّرنا أن ذلك يكفي لتغطية مصاريف البحث عنه وعرضناه في المزاد العلني في حانة منتصف الليل... اشترى الكولونيل أملاكه وسلمني نسبتي عن طيب خاطر.

بعد أيام امتدت يد طويلة لطحن هيكله العظمي في منعطف على الطريق السريع على مرأى من جمهورية النهار!؟

مهما يكن، نحن لدينا تقاليد ليلية صارمة متفق عليها ولا يحق لأحد القفز فوقها، لدينا قوانين مسلحة بقضاة لا يبتسمون، وعصابات سريعة الانفعال، واحتكام للسلاح لا غنى عنه... لكن عنتر استعمل عضلاته البارزة مع الإدارة في جمهورية النهار لبيعنا في سوق الأجهزة الكهرومنزلية، كما قال، وهذا مضر بالصحة الجيدة التي تنعم بها مملكة الليل باعتراف الجميع.

لذلك أعطيت أوامري: لابد من صناعة صدفة أشبه بمرور شاحنة مجنزرة على سيارة عنتر في منعطف شارع عام كي لا تصبح قوادته مثلا يحتذى به بين صفوف السفلة.

*

نحن هكذا دائما، محترمون ونعمل عملا نظيفا. صحيح أننا نصنع صدفا طريفة لامتصاص دم الخصوم، لكننا نصنع أيضا صدفا جميلة للارتقاء بالسفلة الجيدين، صدفا ربما أكثر تعقيدا قليلا، كتلك التي تطرق مثلا باب مدير بنك حديث العهد بالمنصب، وتضع بين يديه ملفا محكما لاستيراد قطع غيار الجرارات المصنوعة محليا!؟

نبعث الكولونيل المتقاعد محيرقة لإسباغ حمايته العسكرية عليه، فنحن نعرف أنه تدخل شخصيا لتعيينه في ذلك المنصب، لأنه ابن عشيرته... ودون شك سيتعامل معه لنهب بعض القروض البنكية قبل أن يشب حريق ما في أرشيف البنك ويفقد الجميع آثار ملفات لا يعرف أحد محتواها، ولا احد يستردها أو يخصم منها الضرائب.

حالما يضع المدير الجديد مؤخرته على كرسيه، نصنع له بعض المشاكل الصغيرة الجاهزة، كأن تعبث يد بمخزون ملفات الزبائن في أجهزة الكومبيوتر المعقدة دائما،، وربما نضع شرطيا في طريقه لمراقبة وثائق سيارته، فهناك دائما شيء ما في وثائق السيارة تعنفنا الشرطة عليه!؟ ثم نفتح باب التعارف بينهما، يقول الشرطي بتفهم لا مثيل له: أنا هنا سيادة المدير الريح التي تزعجك نربط أجنحتها بالسلاسل!؟

ولا بأس بعد ذلك أن نبعث له بعض ضباط الصف، الذين دخلوا مجال الأعمال خلسة، كي يحولوا حساباتهم البنكية من

بنوك أخرى لأنهم، كما يقولون له دائما، يثقون في ذكائه العبقري وقدراته الخارقة على إدارة أموالهم في أعمال تدرُّ على أسهمهم فوائد مجزية...

سيشعر المدير الجديد أنه أصبح شخصية مهمة لها حماية عسكرية من جهة، وعلاقات في دواليب الشرطة من جهة أخرى... وبعد ذلك ستتكفل سكرتيرته بعينين لا ترمشان بمديح أناقته وترتيب ربطة عنقه، ثم باهتمام خاص ستطلعه على الصفحات الأولى لصحف اليوم:

- هناك مشكلة كبيرة يعاني منها البلد اليوم سيادة المدير!؟

وتضع أمامه جرائد الصباح وتخرج من المشهد...

حتى الآن كل شيء هادئ على جبهة الحرب... لكن الدعوة الكريمة التي توجهها له الحاجة قمير لعشاء عمل ستفرقه بين سرب من المعجبات وحمام عطور وشهقات شبقة، ويدخل بعدها شيخ المرابين الحاج كشكول بهدايا من نوع سيجار الهافان، ورطل من الكافيار وعطر فرنسي نادر... و... وكل إغراءات الحياة العالية، وينتهي حفل العشاء الساخن بحديث عن صفقات ومشاريع وشخصيات وهمية كبرى تؤجج فيه صفة الطمع الشنيعة التي تؤدي غالبا بالإنسان للنظر إلى نفسه في مرآة نفسه على أنه أجمل كثيرا من تلك الصورة الكالحة التي جاء بها من حارته الشعبية...

هناك خلف هذه الصورة المستعملة بشكل نمطي في ثقافة الفساد عمل الملك الذي ينسجه بقفازات الحرير: تأسيس شركة وهمية للاستيراد قطع غيار الجرارات... وإعادة صناعة هيبة

الكولونيل محيرقة المهلهلة دوما... ثم شراء بعض الصحفيين الأنذال لكتابة مقالات متباكية حول نقص قطع غيار الجرارات ونحن على أبواب موسم الحرث... وأخيرا شراء لجنة دراسة ملفات الاستلاف في البنك مع دفع رزمة مالية صغيرة لمهندس الإعلام الآلي الذي عبث بحسابات البنك، ورزمة أخرى للسكرتيرة لتنظيف كرامتها بحمام ساخن... وفي الختام تكليف أولئك السفلة أصدقائي الألداء بالقيام بمهام الحفل على حساب الصفقة...

تلكم مصاعب الملوك الذين ينسجون عصرهم بأيديهم... لكنها مصاعب تستحق العناء بالنظر لفوائدها المباشرة على حجم الأرصدة.

هنا مربط اختلافي الدائم مع وزير الخزينة العمومية في جمهورية النهار، هو يعتقد مثلما يصرح للصحافة أن الاقتصاد هو عبارة عن شراكة بين كل المساهمين فيه... وأنا أستبعد كل العاطلين عن الذكاء الذين لا يقومون سوى بصرف الصكوك في شبابيك البنوك.

لقد وضعتني سلسلة من هذه المصادفات السعيدة والمدروسة بعناية فائقة على طريق بعض القضاة ومحافظي شرطة ومدراء بنوك ومؤسسات عمومية ورجال أعمال تمدح الصحافة ذكاءهم باستمرار... تعاملت معهم كشركاء فاسدين كاملي الحقوق، وجربت لحمهم المالح كلحم الأحمرة، وعرفت أنه غير صالح للاستهلاك... لذلك تراني مضغته بشكل جيد قبل أن أبصقه في دورات المياه القذرة في الحانات.

لست سيئا إلى الحد الذي أتسامح فيه مع المصادفات غير المدروسة بعناية، أو أعطي خصومي فرصة أخرى لتجريب أسنانهم. أنا هنا لممارسة صفاقتي بصلف لا مثيل له، وعلي أن أكون في مستوى المهمات الجسيمة الملقاة على عاتقي.

*

8

طيلة السنوات الخمسين الماضية التي تجشمت فيها عناء بناء مملكة بهذا الحجم وهذه الفوضى المتقنة تصرفت بهذا الشكل: أخرج للناس من بين تلافيف أدمغتهم كالكابوس ثم أقبض عليهم متلبسين بالجرم المشهود؟

لقد وظفت جيوشا من صناع الأخبار والإشاعات والخيالات التي لا يمكن لأحد أن يتأكد من صحتها ... كنت ككل الملوك المحترمين استثمر فيما يجعل رعاياي على مرمى يدي، أمددتهم بالمادة الخام ثم تركت كل واحد يصنع مني الأيقونة التي يسلح بها معبده...

قلت دائما أن على الملك الجيد أن يقبض على رعاياه من داخلهم كي يتمكن منهم، أما إذا بسط يده وانزلق منها أحد السفلة فسيحرض الناس في الشارع على التمرد على حياتهم التافهة، وينشر زراعة الأمل في أدمغتهم القاحلة،، والنتيجة تكون غالبا : تقويض صناعة الوهم وبالتالي قيمة الضرائب، وهذا يمس دون شك باستقرار المملكة وبسلامة الرعايا وربما بخبزهم اليومي أيضا ...

قد يقول البعض بأنه لا توجد معادلة رياضية صارمة يمكن تطبيقها على السفلة، حتى وإن كان الخوف هو القاسم المشترك

بينهم غير أن لكل سافل معادلته الخاصة وعمليات معقدة من الضرب والطرح والقسمة!؟

هذا غير صحيح... كل السفلة في مواجهة فوهة المسدس جبناء، وكل السفلة وراء قناع التخويف الذي يلبسونه أمام ضحاياهم خائفين.

لقد جربت ذلك مرارا وأنا راض على العموم بالنتيجة التي تحصلت عليها، حتى ولو حدثت استثناءات من نوع وزير التأمينات على الرواتب، كما يسمي نفسه... ذلك الصعلوك الطريف الذي نصب نفسه على رأس أكثر القطاعات حساسية وشفقة.

كان يجلس في أول كل شهر على باب البريد المركزي منتظرا خروج الموظفين الصغار برواتبهم الشهرية كي يقتطع منها علاوة التأمين من السرقة وإلا سيبعث وراءهم من يسرق الراتب من جيوبهم، كما يهددهم جهارا نهارا، دون حسيب ولا رقيب، ويضيف بصوت باك كأصوات الشحاذين: الله غالب ماذا نفعل مع أبناء الحرام الذين أصبحوا أكثر من أبناء الحلال في هذا البلد...

كان الجميع ينظر إليه كمصيبة لا مفر منها، حتى الشرطة التي ندفع لها رواتب للركض وراء اللصوص الصغار في الشوارع، تلافته لأسباب تبقى مجهولة، البعض اتهمها أنها تتقاسم معه الغنائم، وآخرون قالوا باختصار لم تعد لدينا شرطة وكفى!؟ وربما تقول الشرطة من جهتها بامتعاض أنه مجرد متسول يعطيه الناس صدقة عن طيب خاطر...

اشتكى الناس وغصت أصواتهم بالدموع، وانتظرت أن يأتيني صاغرا لدفع الضرائب لكنه ركب رأسه، وتجنب المرور على

مملكة الليل لفترة طويلة... قيل لي أنه جمع خلالها أموالا طائلة من جيوب الموظفين الصغار... وحين مددت يدي ذات ليلة لأخرجه من بطن أمه كان قد قر قراره بالتهرب من دفع الضرائب حتى ولو دفع حياته ثمنا.

بعثت إليه من أشعل النار في أثوابه لمدة ثلاثين ثانية، ورمى به محترقا في البحر لمدة ثلاثين ثانية، ووضع رأسه في حبل معلق بسقف إسطبله لمدة ثلاثين ثانية، ثم وضعه أمام فوهة المسدس لثلاثين ثانية أخرى قبل أن يثقب أذنيه اللتين كان يعلق بهما قرطين من ذهب... ولولا أمه التي صدمها صوت الرصاص فاعترفت بمكان النقود ما كان يمكن لي تحصيل ضرائبي منه أبدا... ابن الحرام!؟

أستطيع أن أروي لكم الكثير من هذه الوقائع الطريفة، ومنها أن وزيرا ظهر منذ سنين بعيدة وكان يتأبط وزارة الموظفين الصغار، وكان يبيع المناصب الحلوب، كما يسمونها، بأثمان باهظة لمن يرغب بالانخراط في عالم المرتشين. كان يبكي دما ويدي تضغط على رقبته، وانتظرت بهدوء حتى ابتل سرواله، ثم عالجت بعض أضلعه بعقب المسدس، ووضعت بعض الملح على جروح رسمتها على مؤخرته... ثم خبأت رأسه في كيس أسود حتى انفجرت إحدى رئتيه... ومع ذلك ظل يقسم أنه لن يدفع سنتا واحدا تحت التهديد... وكان علي أن أحرض عليه موظفيه لغلق باب وزارته وطرده باسم الكفاءة في العمل التي اخترعتها من أجله خصيصا، قبل أن تسقط مزهرية من الطابق الرابع على رأسه في الشارع الرئيسي في المدينة فيدخل بعض الهواء الناعم لرحام جمجمته...

علي أن أعترف أن هذا النوع من الكائنات لا يمكن امتلاكهم من الداخل ذلك أن أدمغتهم مسطحة ولزجة كقاعات الحمامات التركية لا شيء يلتصق برخامها ولا أحد يمشي مختالا على صابونها. لذلك من الأفضل للملك أن يثقبها بطريقة ما لتهويتها قليلا...

*

صحيح، نحن في حاجة إلى الرؤوس الفارغة لصناعة ممالك على المقاس، لكن هذه الرؤوس يجب أن تكون في مكانها، وإلا أصبحت كتلك الأشكال الطوطمية التي نشاهدها في أفلام الخرافات والتي ترى بعين واحدة ، وتكبر في لحظة واحدة، وتحاول أن تلتهم الكرة الأرضية لمجرد أن الناس يهربون مرعوبين من شكلها المخيف...

هنا علي أن أشير إلى ما يمكن تسميته لا تسامح الملك!.

فكما هو معروف يولد بعض الناس بأدمغة بغال، ومهما حاولنا أن نفهمهم أن دفع الضرائب عمل مقدس لا يمكن التهاون فيه، إلا أنهم يخترعون عشرات الحيل للتهرب من واجباتهم، حتى ولو كانوا من خريجي معاهد الحقوق، حيث يدرسون على سبيل المثال أن القانون يقوم بحراسة أنانيتنا وسوآتنا... أنت، يقول أستاذ القانون الجزائي، حالما تعتدي على حقوق الآخرين يتحرك القانون لكبحك... الأنانية هي مرض الشعوب التي ليس لها قانون!.. ويضيف الملك: أن أفضل ما في دراسة القانون أنها تجعل من دارسها جبانا لا يمد يده لجيوب غيره... للأسف...

ها هو ما يجعل مصير وزير الاستيراد الذي تولى هذه الحقيبة منذ عشرين أو ثلاثين سنة مضت في جمهورية النهار، استثنائيا وقاتلا... كان تلميذ قانون جبانا ولكنه جشع لا يشبع وقاتلا لا

يرعوي... على عكس كل خريجي القانون الذين عرفتهم... مسك الحقيبة بأسنانه ووظف جيشا من الحرس لحمايته من الطماعين والحساد... كانت كل مستوردات الحكومة تمر عبر مخازنه وشركاته الوهمية قبل وصولها للسوق. كان يتحدث عن الإنعاش الاقتصادي وكأنه يتحدث عن رصيده الشخصي، ويصرح أمام الصحافة عن النجاعة والمشاركة الاقتصادية وكأنه يتحدث عن أرباح شركاته غير متعددة المساهمين...

كنت أتابع باهتمام ككل المواطنين الصالحين خطبه الرنانة وأرصدته السمينة... وذات يوم اتصل بي مدير أعماله، وهو فاسد عظيم، له مسار حياة لا غبار عليه: هناك شيء غريب يحدث في هذا المكان... الأرصدة بدأت تنحف فجأة وكأنها أصيبت بأنيميا غير مشخصة؟ قلت له جادا: لا تقلق يا رعيتي العزيز بلعوط لعلها تمارس الريجيم من ورائكم!! تتبعت الأثر ككلب صيد مدرب... الأرصدة تتحول عن طريق كشكول والكولونيل محيرقة إلى عملة صعبة في السوق السوداء وتذهب إلى بنوك وراء البحر...

قلت: ماذا يحدث في هذا البلد حتى وزير الاستيراد يتحول إلى وزير تصدير... لا، هناك تداخل كبير في الصلاحيات يجب وضع حد فوري له!؟

السيناريو المعروف في مثل هذه الحالات هو التالي: الكثير من الموظفين السامين لا يثقون في هذا البلد الذي وظفهم وأعطاهم امتيازات وأموالا وقحابا وقوانين يختفون وراءها كي يمروا وراء خط التسديد، وبعدها تجدهم فجأة في رواق المطار يشتمون هذا البلد، زهقين من زحمة المواصلات وازدحام خطوط الهاتف وانقطاع الماء عن الصنابير سبعة أيام في الأسبوع... ويمكن أن يتحدثوا دون حرج أمام الصحافة الغربية

عن هذا البلد العجيب الذي لا يزال يمشي، يمشي فقط، دون منظومة مدرسية ولا منظومة صحية ولا منظومة قضائية ولا منظومة سياسية ولا ... ولا ... وربما حتى دون مدونة أخلاقية ولا هوية ولا لغة ولا دين ولا... لكنه يمشي أو بالأحرى يزحف كالثعبان على بطنه مفترسا في طريقه أجيالا وأجيالا من الكائنات الخرافية الصبورة...

سمعت بضع حكايات من هذا النوع يتردد صداها في جمهورية النهار بعد أن أصبحت ماضيا عتيقا. وتأسفت لهذا الإهمال واللامسؤولية اللذين تعاني منهما هذه الجمهورية الشقيقة والشقية... لكنني ككل ملك محترم لا يتدخل في الشؤون الداخلية للحكومات الأخرى اكتفيت بالأسف والحزن على ضرائب لم أجبها في وقتها، وقررت الصبر حتى يأتي الفرج...

صحيح، لقد دافعت في الماضي بضراوة وحزم ساحقين عن فكرة حاسمة في تأسيس الممالك المعاصرة: ضرورة أن نصنع لنا صورة صالحة للتسويق وتبادل العلاقات الرسمية مع البنوك والخزائن السمينة في الدول التي تحافظ بشرف على صناعة المال والفساد والمتع الصغيرة!.

نحن لسنا وحدنا في هذا العالم للأسف، وعلينا أن نعمل دائبين على إقامة علاقات ثنائية مفيدة بين أرصدة الشعوب وفاسديهم الكبار، حتى ولو يتطلب بعض المصاريف الجسيمة على سفراء لا يتميزون بحكم ترددهم الطويل على المدارس بموهبة الفساد الجميل... ففي نهاية الأمر على المدى البعيد حين ينقرض الأخلاقيون والمتثاقفون من على هذه الأرض سنكون مضطرين إلى إيجاد مكان لنا في حكومة الفاسدين

العالمية والمساهمة الجادة مع الأنذال العظماء في إنقاذ الأرض مما ألمَّ بها من صداع الفضائل القديمة...

لكن لم أطلب أبدا أن يقوم أحد، بما فيهم الموظفون الرسميون، بتصدير أوراقنا المالية إلى دول أجنبية حتى ولو قيمة عملتنا مخجلة...

كان يمكن أن تكون مشكلة كبيرة فعلا لولا العلاقات الثنائية الرخيصة التي تربطنا مع الكثير من الفاسدين الكبار في العالم والذين هم على استعداد دائم للتكفل بشراء ذمم صالحة للبيع نسوِّقها لهم عن طيب خاطر... ألم ألح دائما على التكامل الضريبي بين الجباة في الشرق والغرب؟! وإلا كيف يمكن تسريب جبال من الأوراق النقدية دون عقاب... أبرقت معلومات على عجل لأحد السفلة الأصدقاء في دولة غربية:

- " انتظر عجلا سمينا يجر وراءه عربة من صور شخصياتكم التاريخية مرسومة على أوراق ثمينة!؟ "

كنت أعرف أنه وطني غيور وسيغتاظ دون شك من جرجرة عظماء البلدان الأوروبية في عربة وراء ثور لاهث كحمار يحمل أسفارا !.. ولذلك ستأخذه العزة والنيف... وسينتقم لعظماء بلدانه التاريخيين...

فيما بعد كتبت الصحف أن طالب لجوء سياسي، كان وزيرا سابقا في جمهورية النهار، وجد مقتولا في كاراج العمارة التي يسكن بها بحي راق من أحياء العاصمة باريس...

هذه مجرد حالات استثنائية لا يمكن القياس عليها. لولا أنها أصبحت من الكثرة بحيث تحولت هي الحالات غير الاستثنائية...

*

هناك قاعدة ذهبية على الملك أن يتحلى بها: كلما كان رد فعله بطيئا وبعيدا عن صخب الحادثة كلما كان حاسما وبعيدا عن الشبهات. الممالك تبنى بالرؤوس الباردة وليس بانفعالات الرعاع.

لقد حذرت حراسي دائما من رد فعل الشارع: الملك ليس من حقه أن يخسر معركة، قد يؤجل الحسم فيها لظروف معينة لكن ليس من حقه أن يخسر!..

المشكلة أن الحثالة في الشارع لا تستوعب أبدا أن الملك قد يخسر مؤقتا معركة جيدة التصميم، لكنه سيربحها على المدى البعيد... لذلك ما إن يتراءى لهم أنه تراجع أمام رأس بغل حتى يعتقدون أن الملك شاخ وسينوون كسر عصا الطاعة ويظنون به الظنون... وقد يصل بهم الأمر إلى ركوب رؤوسهم... وقد يتأخرون قليلا في دفع الضرائب...

لذلك على الملك أن يُخرج بعض خصومه من مجال بصر الحثالة ويعالجهم بكل ما أوتي من عبث وصبر: ثم أجّل معهم الحسم إذا كانوا رجالا برؤوس بغال، فقد تحتاج إلى وقت أطول لتعرف الطريق إلى خزائن أرصدتهم!؟..

ذلك تماما ما حدث لي مع ابن باطول... تلك الشخصية الطريفة التي استخرجتها من جارور حانة وجعلت منه رئيس حزب المعارضة، لإعطاء شرعية لحكومتي التي سأعينها لاحقا...

كنت قد قدرت كملك مستقر في كرسيه أنه حان الوقت لبسط يدي كي ينزلق منها سافل كبير لقيادة معارضة شرسة ضدي!؟ هكذا قلت له صفها بافتخار أمام الصحافة. كان هدفي واضحا: وضع خصومي في مربع محدد ليسهل خصيهم حين أشاء!! وفي الحقيقة كنت مرتاحا لرأس البغل الذي يحمله فوق كتفيه...

وفّرت لابن باطول كل الإمكانيات الممكنة، بما فيها الخوف الكافي لالتزام حدوده... جردته من كل الأحلام البراقة التي ورثها من طفولته الشقية والتي كان لا يكف عن العودة إليها حين يسكر وتختلط عليه الطرق... ورّطته في بضع مآزق لتأثيث ملف فساده، ثم أعطيته راتبا وسيارة وبضع دقائق للإشادة به في التلفزيون الحكومي...

لكن الغبي صدق الإشاعة ونزل بالمعارضة للشارع...

الشارع هو مشكل الملوك، كما قلت دائما...

لقد وصفت الشعوب الطيبة دائما كقطعان الماعز، شكلها الخارجي يبدو لطيفا ومنسجما، لكنها في الحقيقة نزقة شقية لا تطوعها إذا نفرت لا الخطب السياسية ولا الشرطة ولا حتى كلاب الحراسة ذات الملابس العسكرية.

لقد اكتسبت ثقافة الرعاة هذه في بداية حياتي المهنية من تجار البهائم الذين كنت انتظرهم على باب المذبح البلدي لآخذ مكوسي منهم. وقد لاحظت أن رعاة الماعز هم عادة الأكثر شقاء بتجارتهم، ليس لضعف الطلب على اللحم الفقير الدسم فحسب، وإنما لصعوبة تسليمه لسكاكين المذبح... بل أن أحد الرعاة قال لي مرة أن الماعز لديه طموح الزرافات ونزق الأرانب، فهو لا يتعب من محاولة تسلق الشجر لأكل أوراقها ومتأهب دائما كالأرانب للركض أمام النسر لظنه أنه يتسابق معه!..

فكرت في الموضوع طويلا ثم توصلت للنتيجة التالية: الماعز بطبيعته مسلح بالأمل على عكس البهائم الأخرى كالأغنام والأبقار وحتى الخيول... الماعز لديه دائما حيوية وشطارة للعب مع غريمه، وحين ينتصر عليه من الصعب إقناعه بالعودة للحظيرة...

الشعوب الطيبة كذلك، تبدو لطيفة ومنسجمة وسهلة القيادة ولكن لديها طموح الزراف ونزق الأرانب، فهي إذا وجدت فرصة ستتسلق الأشجار وقد تقفز في الفراغ إذا داهمها الخطر!. وحين يمنحها ابن باطول مثل هذه الفرصة، وهو شدق كبير لا يسكت بعد الكأس الرابع من الخمر، فإن أتباعا كثيرين ينضمون لمائدته حتى ولو من أجل الترفيه والضحك لنكاته البذيئة.

لكن ابن الكلب أعطاهم أكثر من بعض النكت وبعض الانتقاد المتفق عليه بيننا... أعطاهم الأمل في إمكانية تحسين حياة الكلاب التي يعيشونها... وهذا بالضبط ما سأمحق خصيتيه من أجله!.

كل شيء يمكن للملك أن يتسامح معه إلا زراعة الأمل. يمكن للناس أن يزرعوا البطاطا أو الكرافس أو حتى الكلى للمرضى والشعر للصلع... ولكن زراعة الأمل خطر جارف على الممالك.

لقد قدرت بحنكتي وتأملي في المصائر الاستثنائية لشعوبنا أن الأمل هو بنزين الشعوب وغذاؤهم المتكامل الفيتامينات، به يستعيدون مشاعرهم كبشر، وبه يطمحون لتغيير قدرهم، وبفضله يشعلون محركاتهم النفاثة للانطلاق خارج كوكبهم القميء... وأكثر من ذلك، بالأمل نفسه يتطلع ذوو النوايا السيئة إلى أبعد من أنوفهم، وبفضله يزيفون الأوراق النقدية على أمل الثراء السريع، وبه يتمردون على مطالب الخزينة العمومية وبإمكانهم أن يجندوا حتى البهائم للقيام بمسيرة صاخبة في الشوارع.

*

سياسة الأمل سياسة شنيعة، إنها تجعل الملك دائما متأرجحا على عقبيه، متحفزا، متأهبا، واقفا على خط التسديد لإطلاق النار على كل بارقة يمكن أن تخترق رؤوس الماعز هذه... وأكثر من ذلك هي عمل دائب وغير ملموس يمارسه الملك كما يمارس العادة السرية في خياله ولكنه يقذف فيها ما يثقل خصيتيه...

كان ابن باطول مثل حانوت مواد غذائية عامة يبيع لكل زبون السلعة التي يحتاجها حتى اكتسب الكثير من الزبائن، وأصبحوا يدفعون له رسوم الانخراط في حزبه، حزب الأمل كما أسماه!... بل وصل به الأمر إلى حد نشر متسولين في شوارع جمهورية النهار يجمعون له الصدقات من العاطفيين ومرتكبي الخطايا لتمويل برامجه الوهمية... وحين رأى جبلا من رزم الأوراق النقدية يرتفع أمامه اغترَّ بقوته وعبثه...

أغلق الحانوت وبدأ يمشي في الأسواق يبشر الناس بقرب ظهور نبي اسمه الأمل، هذا النبي الجديد هو الذي سيحررهم من دولة الفاسدين، سيوفِّر لكل مواطن سكنا وعملا وزوجة تنتج له الأطفال،، وهو الذي سيقضي على الرشوة والبيروقراطية وبيع المناصب الحلوب و... و... ويرمي الطغمة في مزبلة التاريخ.

كان قد بدأ في شكل لعبة، ولكنه تحول بسرعة إلى مشكلة. كان رأس بغل حقيقي، كيفما عالجت حساباتي معه خرجت دون ضرائب، وكان علي أن أخرجه من مجال بصر الحثالة الذين انخرطوا في أوهامه، وأقدم له طبقا من العبث لم يكن ليحلم به قط..

سربت له برنامج عمل كاملا، ووضعت على غلافه اسم مكتب دراسات أجنبي مشهور، أو هكذا يبدو، وفتحت له بضع صفحات في

صحف شعبية للإشهار لبرنامجه الحزبي، وراح على ورق الصحف يجلب العمالة الصينية لبناء مليون شقة سنويا للفقراء، ويشق حدائق وأنهارا في قلب العاصمة، ويجلب الكهرباء للقرى الريفية في حاملات النفط، ويقوم بتحلية مياه البحر الأبيض المتوسط للشرب والاغتسال، ورش الحدائق طبعا، وسيجلب جرارات ذات تقنية عالية تحرث وتزرع الأرض وحدها: الفلاحة مهنة العبيد ونحن والحمد لله رجال أحرار... وإذا انتخبتموني لعهدة ثانية، أقسم لكم برأس سيدي عبد القادر أنني سأغلق كل مراكز الشرطة التي تقهركم، وسأدفع رواتب عالية للنساء القابعات في البيوت، وسأحلل الزواج للرجال بأربع، وأجعل لكم ثلاثمائة وخمسة وستين يوما في السنة أعيادا وطنية مدفوعة الأجر مسبقا... نحن دولة غنية وشعب فقير... هذا ما تقوله عنا مكاتب دراسات مشهورة في العالم... ها هو الدليل... ويرفع في وجوههم وثيقة كتبت على عجل في مكتب خلفي لحانة منتصف الليل!... صدقوني وانتخبوني... وسترون أن الله سيبعث في عهدي نبيا اسمه الأمل يحقق لكم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر!؟

وحين بلغت به وقاحته المطالبة بتحرير مملكة الليل وإعلانها جمهورية ديمقراطية مستقلة، تحركت آلة المحو وراءه لتتفيه مزاعمه، وفضح أكاذيبه، وحولته بين ليلة وضحاها إلى بهلوان سياسي، وممثل مسرحي، وأبله، وأخيرا... مرتش ومزور ومدير سابق في بيت مواعيد يملكه المرحوم عنتر... الخ، كانت لدى الصحافة وثائق لا يمكن الطعن فيها... وكانت سكرتيرته قد أصبحت عشيقة الباشا... وخزائنه التي خبأها في جوف الأرض انتقلت إلى الأيدي التي ترى في الظلام... وانتهى به المطاف إلى حانة قذرة على هامش البلد يروي فيه للسكارى تاريخ كفاحه

النبيل مع النبي الأمل... وبالطبع كان البعض منهم يعرف أنني أكّلت له خصيتيه نيئتين...

إنني ممن يعتقدون أن أخطر سلاح اخترعه البشر هو الأمل... كل الشعوب كسولة ومسالمة بطبعها لكن حالما يؤجج فيها شخص ما لهيب الأمل تتحول إلى جذوة تحرق كل ما في طريقها. لذلك على الملك الحق أن يجعل الأمل خصما لا يمكن الاستهانة بخطورته، ويسحق أي بارقة منه في شعبه بما في ذلك بارقة أمل التهرب من دفع الضرائب.

*

ربما لا يعرف الكثير من الناس أن الأمل هو ابن بالتبني للوهم، قد يكون أباه غير الشرعي لكنه الحقيقي... إنهما ينحدران من نفس السلالة، ويتكاملان كفصي لوبياء، لكنهما أيضا خصمان لا يتسامحان... نستطيع بقليل من الوهم أن نؤجج الأمل في الرؤوس الخفيفة، وبنفس ذلك القليل من الأمل نحافظ عليها بعيدة عن واقعها البائس.

إن الكثير من الأمل يسمى وهما... والقليل من الوهم يسمى أملا...

ومن المعروف أن هناك لدى كل الحكومات الحديثة مستشارين ومكاتب دراسات وأكاديميين متخصصين في صناعة الوهم لتغذية الجماهير الجائعة...

ربما من الصعب أن يصدق رجل الشارع، كما يسمى عندنا، أن هناك مصانع وأجهزة مهمتها اختراع وصناعة أقراص الوهم، وهي أقراص مدروسة بعناية فائقة حسب المقاييس المتعارف عليها عالميا، ومكيفة حسب نزوات ونفسيات الشعوب المختلفة،

يبتلعها المواطن منذ أن يكون على مقاعد المدرسة إلى أن يصبح على مقاعد التقاعد، وذلك من أجل شفائه من فيروسات الذكاء والعناد والتحديق في حاضره... وبالتالي الحفاظ عليه هادئا طيعا صابرا على وضعه القذر...

بالطبع هناك طرق عديدة للتداوي بهذه الأقراص سواء عن طريق التعليم والخطب السياسية وبرامج التلفزيون الحكومي ومشاريع التنمية المحلية،، أو عن طريق استيراد قيم كبرى كالديمقراطية التي تطلق الرصاص على الناس في الشوارع، والشفافية التي تُزوِّر الانتخابات قبل حدوثها بزمن طويل، وحرية التعبير التي تتحول إلى ثرثرة عجائز على حافة حوض الحمام...

كل مواطن وقدرته على تحمل الآثار الجانبية للأقراص، لكن المهم هو التداوي المؤقت من الأمراض الطارئة، كالمطالبة برفع الأجور وتحسين ظروف العمل، والاحتجاج على غلاء المعيشة وتدني مستوى الحياة... الخ. أي كل ما يؤدي إلى الإضرابات والشغب، وربما إعلان العصيان المدني...

تلكم الأمراض المرعبة تعاني منها المجتمعات الحديثة.

هناك قاعدة عامة يعرفها الملوك ويطبقونها بإتقان: أغرق الشعوب في ما لا تحتاج، وستكف عن المطالبة بما تحتاج!

هذه القاعدة مبرهن عليها ليس في مملكتنا الذليلة هذه فحسب وإنما على مستوى العالم ومستوى التاريخ معا.

ألم تكن بيزنطة صانعة أكبر الأوهام في التاريخ، حولت عبقريتها إلى التفلسف حول عبقريتها، بينما شعوبها خارج القصور لا تعرف من هذه العبقرية سوى الجوع والتفاهة!؟

وماذا حدث في الأندلس؟ أغرق أمراء قليلو الموهبة قبائلهم في وهم أنهم شعوب عظيمة تستحق ممالك مستقلة... ودخلوا في حروب طائفية وهمية أودت بهم جميعا إلى مزبلة التاريخ!..

وها نحن أولاء نرى الكثير من الشعوب في العصر الحديث لا تشبع خبزا ولحما ورغم ذلك تتراكم السلع الكمالية على رفوف أسواقها... بينما شعوب أخرى تتطلع لغزو الفضاء وصناعة قنابل نووية يستحيل استعمالها... وشعوب عاطلة عن العمل غارقة في تطبيب هويتها والاختلاف حول لغاتها وأديانها تطالب بالديمقراطية مثل الشعوب الشبعانة خبزا ولحما...

خسارات بملايين الدولارات تذهب دون فوائد ولا ضرائب، ومع ذلك تبدو لتلك الشعوب ضرورية كالخبز واللحم، بل يتفاخرون بإنجاز هذا اللاشيء وكأنه ضروري لهم كالغذاء والماء الصالح للشرب...

إنني كملك حريص على مصالح رعاياه أدنت ولاحقت وقتلت كل بارقة أمل في الرؤوس المشعثة التي يتفاخر رعاياي بحملها على أكتافهم المحدودبة.

*

9

بعض مدعي الحكمة يقولون أن الملك هو عقل وعاطفة معا، بل أن بعضهم يعزو الشكل الجميل للإنسان للعمل الدائب للقلب، لكن تجربتي الطويلة في هذا المكان برهنت لي أن العاطفيين أقل حكمة مما يعتقد الناس، ذلك أن الملك الحق هو أعصاب وصرامة فقط، أما العاطفة بالنسبة له فإنها علف الحيوانات غير المسلحة.

لقد قدرت بحصافتي أن القلب هو منبت الشوق والخوف معا، ولا يمكن لحاسة بهذا النزق أن تتحكم في أفعال الملك، بل أن أغلب الملوك في التاريخ أودت بهم عاطفتهم وليس صرامتهم. لذلك عكفت لسنوات طويلة على تدريب حاسة القلب على الاكتفاء بضخ الدم في عروقي.

لم يكن ذلك سهلا بالنسبة لرجل قضى طفولته ذاهبا آيبا من المدرسة، لكنني اجتهدت كثيرا في انتزاع قلبي من الآثار السيئة للتربية والتعليم... ودربته، كما قلت، بالاكتفاء بضخ الدم وإلا كنت سأخسر معركة مجيدة مع المسدسات السيئة التصويب...

لقد طلب مني الكثير من رعاياي الأعزاء أن أشرح لهم كيف يمكن للإنسان أن ينزع قلبه من جسده دون أن تتأثر الدورة الدموية بذلك؟!!

كانوا يريدون معرفة المستحيل!..

لكنني مثلما لم أحرمهم من دفع ضرائبهم لحسابي الخاص، لم أحرمهم من الثقافة المشينة التي تدربت عليها طويلا مثلما تتدرب الدودة الشريطية على تطويع الأمعاء على شراهتها.

كنت أظن أن الدروس الكثيرة التي ألقيتها في ساحات المعارك كافية لاستخلاص النظرية، فقد استعملت فيها كل العناصر المضادة لوجود القلب، لم أشفق ولم أرحم ولم أتسامح أبدا مع المتهربين من دفع الضرائب،، حتى النساء اللواتي يحاربنني بصدورهن المنتفخة أو مؤخراتهن العريضة اخترقت فروجهن بماسورة مسدسي... تلك الدروس للأسف لم يفهمها الرعاع لأنهم يستخدمون رؤوسهم الخفيفة لضرب خصومهم بدل استخدامها لاستيعاب بعض الأفكار الصالحة التي أنشرها بينهم لترقية حياة الأنذال التي يعيشونها.

القلب، كما هو معروف، حاسة صعبة التدريب، فالإنسان يستطيع أن يدرب يده مثلا على أن ترى في الظلام، ويعلم أصابعه قراءة الكتب على طريقة برايل... ويمكن للإنسان أن يغير مهمة فمه، فبدل إنتاج الثرثرة أو مضغ العلف أو حتى عض خصومه عندما يخنقونه، يستطيع أن يدرب حاسة أسنانه على مضغ ضحاياه بهدوء ولذة مثلما يمضغ البهلوان أمواس الحلاقة... حتى الأذن ليس من الضروري أن تسمع الوشايات فقط، فمن الممكن تدريبها على تصديق المعارك التي لم ترها، أو التجسس على الخصوم، أو إعداد طبق لذيذ من السلاطة الفضروفية إذا كان خصمك يتميز بأذنين طويلتين مثل محافظ الشرطة في جمهورية النهار الصماء...

نحن الذين نخترع في نهاية الأمر أدوار حواسنا، لكن بتدريب طويل وقاس مثلما يتدرب لاعب الجمباز على السير على يديه بدل قدميه...

غير أن تدريب القلب، الذي يعتبر في الثقافة القديمة حاسة سادسة، يحتاج إلى الكثير من الصلابة والتمعن لتغيير دوره، ذلك أنه حاسة هشة كالبلور لا يمكن غسلها مع المواعين... فالقلب، ودائما حسب تلك الثقافة، يتأثر بالحواس الأخرى، فهو يستطيع أن يشفق إذا رأى دموع خصم جبان، ويمكن أن يحقد إذا سمع أن خصما يعد له مكيدة لخفض الضرائب، ويمكن أن يشتهي امرأة لأن لها خصيتين من ذهب...

القلب ضعيف ويتأثر بسرعة، لذلك من الأفضل للملك أن يقوم بتحييده أولا خارج مملكة الحواس ثم ينفرد به كما ينفرد المعلم بتلميذته يقرأ عليها أجمل أشعار الحب كي يقنعها في نهاية الأمر أن البكارة فكرة تقليدية من الأفضل اختراقها...

*

ربما لا تتم العملية بهذا الشكل الطريف إذا استوقف القلب جسدا مثل جسد عيشوش التي ظهرت منذ ثلاثين سنة في الشوارع السفلية لهذه المدينة والتي كانوا يسمونها "عيشة راجل"!..

كانت مترين في مترين طولا وعرضا، قيل أن معلما صينيا درَّبها على الرياضات القتالية لنيل ميداليات وبطولات عالمية بحكم مواهبها في العراك التي ظهرت مبكرا، غير أنه - يا للمسكين - حاول تربية وتطويع لكماتها لفلسفته العتيقة التي لم تستوعبها قط، كان يقول لها مثلا إذا ضربت أحدا لا تصكيه مثل البهيمة، الخصم في العادة إنسان حساس ويمكن ضربه بنظرة

عين... دربي حواسك على رد فعل مسبق لفعل لم يقترفه الخصم بعد... دربي يديك على تلافي ضربات الخصم وليس ردها... وظل يلح عليها بأن القلب هو سلاح الإنسان وحاسته الضاربة... به يستشعر الخطر، وبه يرى في الظلام، وبه يخنق خصومه...

بالطبع فهمت نظريته بمعناها الحرفي وغافلته وهو نائم وأكلت قلبه!..

لم تكن الشوارع السفلية لمدينة الجزائر مؤهلة أبدا لظهور مثل هذه المعجزة، فهي عادة شوارع أناس بسطاء رائعين، وقد رأوا بأم عيونهم مرور قتلة معروفين، ولصوص صغار، وثوار هاربين من قدرهم، ورعاع لا يمكن مجاراتهم في النذالة، وتقبلوهم كلهم بلا مبالاة وأحيانا بتعاطف جم... ولكن ظهور امرأة تضرب الرجال فذلك لم يروا له مثيلا...

مهما يكن، في ثقافة السفلة التي ورثناها عن أجدادنا الضواري كان يسمح فقط للرجل أن يضرب المرأة، أما المرأة التي ترفع يدها على رجل فستقطع يدها شرعا...

لقد أتاح تاريخ السفالة هذا للملايين من النساء أن يعشن بعيون مسدلة، وأيد مربوطة بقصع العجين وألواح الغسيل وجلي المواعين،، دون أن تتجرأ إحداهن على تسوية رأس رجل على كتفيه لتستقيم حياتها معه!. وحين غزتنا الثقافة الغربية بدأن يثرن على تاريخهن ولكنهن لم يجدن سوى الشوارع السفلية يلجأن إليها فرارا من قدرهن... إن أغلب النساء اللواتي وصلن إلى هنا لم يجدن ظروف استقبال مهيأة لتبني ثورتهن، فلجأن إلى حانات وكباريهات قطاع الطرق، فقطعن عليهن الطريق إلى حريتهن... واكتفت أولئك النساء حينها بالحق في نيكهن مقابل

أجر، وقد ينيك رجل إحداهن بعواطفه الملتهبة أو قبضته السريعة الانفعال، أي أصبحن بعد ثورتهن على أوليائهن ككل النساء الفاسدات في هذا العالم... مجرد قحاب...

أما ظهور عيشوش فقد كان مثل نيزك ثقيل اخترق المجال الجوي وضرب قلب الشارع فأحدث فيه حفرة لا يمكن أن يتخطاها الرجل دون أن يترك خصيتيه في فمها المفتوح...

ما إن حطت عيشوش رحالها حتى بدأت في تعرية العابرين من مصروف جيوبهم... انتشلت الحافظات من جيوب العابرين، والعقود من رقاب عابرات... ضربت بعض أصحاب الدكاكين كتسديد عاجل لمشترياتها... جمعت حزمة من الشباب الصعاليك لتمسح حذاءها الرياضي على مؤخراتهم... وبدأت تتصرف بوقاحة ملكة حديثة العرش...

كانت كالكلب المسعور تعضُّ كل من يمر بها...

حين بدأت الشكاوى ترتفع والحناجر تغصُّ بالدموع والناس يهربون في كل الاتجاهات... قلت ككل ملك عادل لحراسي: أصبروا عليها حتى يسمن رصيدها قليلا فنحن لسنا في حاجة إلى لحمها...

*

دخلت مكتبي وقلبت في مكتبة المقالب الجاهزة عن مكيدة جيدة الصنع يمكن استعمالها لنكاح عيشوش بطريقة ودية صارمة... قمت بتحديث مقلب جميل حتى يتناسب مع هذا الوضع الطارئ الذي وجدت نفسي فيه... ثم طلبت قادة أركاني على عجل: أوجدوا لها زوجا مناسبا!.. قال أحدهم خائفا: من يتزوج مكعب إسمنت يا جلالة الملك؟ قلت: بالطبع أنا!..

فكرت أنني أحتاجها لمعارك نسائية قادمة، فهي دون شك ستتكاثر كالجرذان بعد نجاح أعمالها... لست في حاجة لتوسيخ يدي بها ولا بمثيلاتها... لذلك سأكتفي بتحريشها ككلبة صارف عليهن، واستمتع بمعركة نساء...

لكنها قالت لرسولي: قل له لا يمر في طريقي لأنني سأحشر ذراعي في مؤخرته!..

ضحك قادة أركاني وتغامزوا.

قررت أن أسدل على الاجتماع مسحة جادة لإطفاء الابتسامات على وجوههم:

- هيئوا أنفسكم للطوارئ... لا أحد يعرف ماذا يمكن أن تُخرج المرأة من بطنها... وقد يؤدي أي استهزاء بالموضوع بميلاد غول أو طوطم لا يمكن التحكم فيه...

سألت أحدهم إذا ما كانت عيشوش لها خصيتان، قال: لا !.. قلت: هذا فأل سيء!..

وسألت آخر: كم أصبح رصيدها حاليا؟

قال: يمكن أن تصبح دافعة ضرائب جيدة...

عندما وصلت عيشوش وضباطها حانة منتصف الليل بدعوة كريمة من الحاجة قمير التي تبيع لها الرجال ذوي الثروات الطارئة... كانت الشبكة الفضية التي علقت في السقف والمزدانة بالأضواء والأشرطة الملونة احتفاء بعيد ميلادها قد سقطت فجأة على رؤوسهم وراحت تلتف حولهم كلما تصارعوا معها كأسماك القرش للتخلص منها...

تم تقييد الضباط وسحلهم على وجوههم، ثم ربطت أطراف الشبكة لبعضها وجرجرت تلك الفيلة الصغيرة ذات المائة

والخمسين كيلوغراما إلى غرفة جانبية للشروع في إعداد حفلة عيد ميلادها الثاني والعشرين بفرح لا مثيل له... وانتظر الجميع وصولي...

دخلت دافعا أمامي عربة صغيرة عليها قالب عال من الحلوى مزين بشموع مشتعلة بعدد سنواتها، وارتفعت أغنية عيد الميلاد صاخبة من مكان ما، وتأهبت كتيبة الأشداق الكبيرة للتلذذ بمضغ حكاية جديدة حلوة...

لكنني فوجئت بعيشوش على غير الأوصاف التي حملها إلي الوشاة والمضروبون من طرفها... كانت جميلة على غير العادة... ذات جسد أملس كأجساد الدببة القطبية... فيها بعض الثقل في صدرها المنتفخ وفي مؤخرتها العريضة... كانت امرأة سرير وحرير وليست امرأة ضرب ونهب...

كاد قلبي الذي دربته على العماء التام أن يبصرها كامرأة مسكينة بين المواعين، لكنني بسرعة خلصته من نظارات تقوية الرؤية التي اقتنصها مني، وبدأت في إطعامها من جبل الحلوى الذي حملته خصيصا لها...

انتظرت حتى أنهت قراءة بيان السباب والشتائم الذي تحفظه عن ظهر قلب، واستمتعت بتلذذ لرجاءاتها المثيرة للشفقة وهي تصرخ بأنها كفت عن أكل الحلويات لأنها تقوم بريجيم صارم، ثم دفعت ماسورة مسدسي بين فخذيها ورحت أحركه ببطء داخلا خارجا حتى نزل قلبها إلى فرجها وكادت روحها تنط كأرنب مذعور من حنجرتها...

اقترحت عليها حينها بتواضع جم أن تتقبل مني درسا تربويا بسيطا في الشقاوة: من غير المستحب يا بنيتي في مهنتنا القذرة والعظيمة هذه أن نأكل قلب معلمنا لنزداد شجاعة، نحن إما نولد وفينا قلب يحس ونكون حينها أنذالا رائعين، أو نولد دون قلب كأسماك القرش ونتحمل مصيرنا أيضا كأنذال رائعين... أما أكل قلب معلم نائم فإنه ينتهي ككل المأكولات في مراحيض الحانات!؟

كانت عيناها جاحظتين وشفتاها ترتعشان وعليهما ابتسامة صفراء باردة كابتسامات الموتى. وحين صمتت تماما من السباب والشتائم التي كانت تكيلها لي، بمراعاة تامة لمشاعري، ووقعت لي صكا على بياض كجباية ضرائب من أرباحها غير النظيفة، سلمتها لقادة أركاني...

عندما استفاقت في الصباح من كابوسها الرهيب في المستشفى الكبير لم تتعرف على نفسها في مرآة الحمام. كانت قد تحولت بجسد الفيلة الذي تحمله فخورة به إلى قطع لحم مهروسة تليق بقطعة همبورغر لذيذة.

صحيح أنني فقدت عيشوش كدافعة ضرائب ممكنة بعد اختفائها الأبدي، لكنني علمت قلبي درسا في العماء لا يمكن بعده أن يشتهي خصومه حتى ولو كان لحمهم أملس ولذيذا كلحم الدببة القطبية.

*

القلب - قلت - يستطيع الملك القوي أن ينتزع منه كل أسلحته البشرية كالتعاطف والرحمة والتسامح والاشتهاء، ويكلفه فقط بضخ الدم في جسده، هذا إذا كان يريد فعلا أن يصبح ملكا

وليس مجرد مدير عام للأمة كما هو شأن رؤسائنا المنتخبين ديمقراطيا تقريبا...

من جهتي في المرات القليلة التي كنت فيها مهددا من طرف تلك المشاعر الوضيعة تصرفت بالشكل التالي: إلغاء كل الطرق المؤدية إلى القلب وتصفية الحساب مع خصمي بحواس مغلقة...

خلال السنوات الخمس الأولى التي شرعت فيها في بناء مملكة بهذا اللا قلب فكرت طويلا في مهمة القلب التي لا يمكن تجاوزها.

كنت أغلق باب الغرفة علي وأضع قلبي أمامي وأعنفه: الخصم الذي تسامحه سينتظرك في منعطف الطريق ليطلق عليك مشطا من رشاشه... الصديق الذي تستأنس به سيبيعك لشرطة جمهورية النهار... المرأة التي تشتهيها ستطمع في اقتسام ثروتك معها... الشعب الذي تعامله بعين العطف سيطالبك بالديمقراطية لمجرد التحرش بك... البشر عن سابق تجربة ومعايشة هكذا يقبضون على الرجل من قلبه ثم يمتهنونه كبعوضة... هل تَتَّعظ؟!

لكن القلب من لحم ودم، مسلح ببضع سنوات من ميراث الشفقة في الحواري الشعبية، وتعزير المربية على التلذذ بقتل الحيوانات الأليفة في البيت، وعقوبات المعلمة في المدرسة التي لا أكف عن النظر إلى ساقيها...

وكان يلين حين يرى دم أرعن اختطف منه أرعن آخر مصروف جيبه، أو دموع امرأة سرقت منها حقيبتها امرأة أخرى، أو أعمى يعبر الشارع العام فتركله سيارة مستعجلة...

كانت مناظر مألوفة في شوارع جمهورية النهار لكن القلب من دم ولحم ومزود بقرون استشعار فائقة الحساسية: قلت لك كف عن هذه الثرثرة وانتبه للدرس!!

لكن القلب عاطفي ومعجب ببضع كيلوغرامات زائدة على صدر ومؤخرة المعلمة مثلا... يستغفلني في عز الدرس ويشوش انتباهي وهو يتابع الهزات الارتدادية لخطواتها الضاربة باعتداد لأرضية القسم...

كانت المعلمة جميلة إلى حد مثير، وكان القلب ذو الخامسة عشر لا تزال به بعض الرضوض من آثار طفولة مضطربة. طيلة الأشهر الثلاثة الأولى لم أستطع أن أفهم كلمة واحدة مما كانت تقول، ليس لأنها تتحدث بالعربية الفصحى، وإنما لكون حواسي كلها كانت عالقة بمفاتنها، كان كل شيء فيها مكتنزا ومثيرا، وكان شيء ما أسفل بطني يكتنز بدوره ويستثار كلما مرت على مقربة منه. وكان على القلب المتورط في عاطفة مستحيلة أن يتخذ موقفا حاسما.

في تلك اللحظة الحاسمة التي قبضت فيها على قلبي متلبسا باشتهاء المعلمة عالجتها بلكمة طرحتها أرضا وغادرت المدرسة إلى الأبد.

*

علي أن أعترف هنا أن الشفاء من القلب ليس أمرا سهلا، فقد يقضي الرجل عمره وهو يحميه من النزول إلى خصيتيه أو الانكفاء تحت أخلاقه القديمة. أما إذا كان من النوع الذي تردد كثيرا على المدرسة فإنه في الغالب ينتهي به إلى الاستسلام أمام صعاليك من نوع القوانين والأخلاق والجبن... الخ.

لكن طريق الملوك كما هو معروف محفوف بالمتاعب والصراعات بالقدر نفسه مع أنفسهم ومع خصومهم. والقلب يعتبر معركة فشل أو نجاح بالنسبة لهم. لأن في ميدانه فقط تحدد أهمية الملك ورصيده ومساحة جغرافيته... وموقفه الحاسم...

تعريف الموقف الحاسم بسيط: جرد موضوعك من كل تفاصيل القلب وخذ خصمك عاريا... حدد هدفك بشكل جيد، ولا تتفاوض أبدا حول الشروط والظروف... الناس لا يخضعون أبدا للتسامح أو العفو وإنما للقوة. قل: أريد هذا... ثم أغلق قلبك عن التفاصيل حتى تلمس الهدف بأصابعك، وحينها أطو مسدسك في حزامك واذهب عاريا من أي إحساس.

التفاصيل هي الشبكة التي توقع القلب. كلما تعددت خيوطها تعددت ثقوبها التي تقبض عليك. ماذا تفعل بمعلمة تؤجج فيك الجنس وليس العلم. أنت جئت إلى المدرسة كي تتعلم؟ لكن تفاصيلها أخذتك إلى خصيتيك... هي المسؤولة وليس أنت؟ انزع التفاصيل جانبا وأدّ مهمتك كملك لا يستثار!..

ماذا يفعل الملك إذا كانت القطة التي أنقذها من براثن كلب شرس قد تركت ندبة عميقة على خده؟ من الأفضل أن يضعها دون تفاصيل تحت عجلات شاحنة! ماذا يفعل الملك إذا مد أحد المتسولين يده إلى صندوق الضرائب بحثا عن قطعة خبز... يقطعها ويعلقها فوق الصندوق ليراها المتسولون الآخرون!؟

بالنسبة للملك لا يهمه أن تكون معلمة أو قطة أو متسول. لقد أغلق قلبه منذ زمن طويل عن التفاصيل، وباشر حياته كقابض ضرائب...

لكن... هل حدث ذلك بنفس الطريقة مع تلك التي كانت تدعي أنها أمي... لا... كانت هي المرأة الوحيدة التي تغلبني بدموعها. كانت أرملة تعيش على وهم أنها تنحدر من أسرة باشوات، كانت جميلة كملكة وهي في السبعين، ذات ميراث عاطفي قاس قالت أنه يعود لأجدادها الأتراك... كانت تضربني بالعصا ثم تبكي معي... كان بها جنون عظمة رائع تطمح للاستيلاء على عرش ما

في هذا العالم الذي لم يتركوا فيه أرضا خالية لإقامة عرش... لكنها اكتفت بصناعة عرش صغير في بيتها ذي الألف غرفة، والذي آوت فيه بعض اليتامى والبغايا ودزينة من الدجاج والماعز، وبعض الخدم المسنين، وبعض الكتب والموسوعات التي التهمتها قبل سن السادسة عشرة، ثم مضغت بأسناني الجيدة الرصف بضع صفحات منها نكاية بالمعلومات الساذجة التي كانت تحملها...

لا أعرف كيف وصلت إلى بيتها، كانت ملكة كتوما في كل ما يتعلق بماضيها، وهذا هو الشيء الوحيد الذي ورثته عنها بامتياز. لكن بعض الخدم كانوا يعنفونني وهم يصرخون في وجهي: ابن الحرام... وبعضهم كان يناديني عمدا: اللقيط... وكان هذا كافيا كي أشعر بالراحة من خفة الماضي الذي يحمله الناس بتثاقل على أكتافهم، وفي نفس الوقت لا أشعر بدين لأي كان.

حين أصبحت قادرا على ضربها قالت لي الآن أصبحت رجلا، وعليك أن تبدأ في البحث عن أرض خالية لتأسيس مملكة، سأكلفك منذ الآن بالصرف على الخدم والبغايا والماعز كي تعرف قيمة الدراهم وبعدها تكفل بنفسك... وسلمتني مسدس عمي كعوان الذي اختفى لحظة موته...

كدت أقهقه من أفكارها الرعناء التي لم تتغير ... لكنني فكرت في العرض المغري الذي جاء متأخرا جدا... جاء بعد صمتها عني في قبو دار العدالة خمس سنوات كاملة قائلة لقحابها: السجن مدرسة الرجال... أتركوه يصبح رجلا!.. وهو ما لم أغفره لها أبدا... لكنني صمت...

كنت أعرف أنها تترصدني من وراء الأبواب المغلقة... وكانت مستغربة من التحولات العميقة التي حدثت في حياتي منذ خرجت من السجن، كانت تقول أنني لم أخرج رجلا... لكنني خرجت حيوانا ليليا!؟ فلم أعد أخرج نهارا كما كنت من قبل، ولم أعد أجوب الشوارع بدون هدف، ولم أعد أضرب أبناء الجيران بدون سبب... كان شيئا عميقا ومخيفا، كما كانت تقول، قد غزا حياتي... وقد ظننته في البداية أثرا من آثار الخوف... وباحت مرة لإحدى الخادمات أن جنية ربما تزوجتني في السجن... لكنها في نفس الوقت كانت وهي تتجسس علي، تنظر ببلاهة للوجوه المختلفة التي كنت ألبسها أمام مرآة غرفة النوم وأنا أتحدث مع نفسي عن برنامج عملي القادم...

كانت تقول أنني أصبت بالجنون في ذلك القبو البارد وتلعن الوكيل الذي غادر منصبه دون وداعها...

حين طلبت منها أن تعلن موتي بعد اختفاء أشهر في بيتها استعاذت خوفا ورعبا: ومن يتولى بعدك إدارة الصرف على الخدم والبغايا والماعز... ابق حيا من أجلي... رجاء... أنا مريضة وفي حاجة لوجودك!..

سددت المسدس إليها وطلبت منها بهدوء أن تبعني بيتها فهي في طريقها إلى المقبرة ولا داعي أن تبقى ساهرة على نظافته!!

وافقت فقط من أجل إرضائي... كانت خائفة من ذكر الموت في هذا البيت وكان عليها أن تتحاشاه حتى تنظر ما تفعل بي...

باعت لي بيتها مجازا بما فيه من ماعز وبغايا وبعض الخدم المسنين مقابل وعد بالقيام بجنازة عظيمة لدفنها.

حينما ماتت في تلك الليلة، كدت أتعاطف معها وهي تحشرج تحت قبضتي، لكنني كنت قد دربت قلبي على الاكتفاء بضخ الدم

بعت بيتها مع كل ذكرياته للحاجة قمير، التي كانت تجارتها مزدهرة حينذاك، وحملت على كاهلي كيس الدراهم وغادرت جمهورية النهار إلى مملكتي في ضواحي الليل...

*

10

اختراع أفكار جهنمية مهمة جليلة من مهام الملوك، لعلها المهمة الأولى بين المهام التي ينهض لها الملك بحماس وجدية... ذلك أن الشعوب المرتاحة في الغالب تقلق زعماءها! وعلى الملك أن يخترع دائما ما يقلق راحتها ويجعلها أسيرة مشاكلها...

قلت سابقا أنني حالما حفرت لنفسي مكانا في جمجمة المجتمع، سارعت كالجرذ إلى توسيعه من كل الجهات، بكل ما أوتيت من أسلحة فتاكة وقسوة لا ترحم وعبث لا يحترم تقليدا ولا قاعدة ولا منطقا...

لكنني لم أقل أبدا أن كل ذلك كان له منطقه الخاص، المنطق والأحرى اللا منطق الذي لا يستطيع فهمه سوى ملوك على جانب كبير من الفساد...

إنني حين أعلم أتباعي ومريدي فنون المقالب، وأدربهم على نسج الحبكات الأكثر تعقيدا وصلاحا، فلأنني مثل الخيميائي أو المشعوذ الذي يجرب الأرحقة والخلائط والوصفات ويتأكد من منفعتها المالية قبل أن يزج بها على أرفف مكتبته في انتظار الوقت المناسب...

ربما لا أستطيع هنا أن أعطي وصفا دقيقا لمكتبة المكائد التي حدثتكم عنها سابقا سوى أنها مثل حانوت صانع العطور، مجموعة كبيرة من الوصفات والخلائط والأمزجة وقوارير الاستقطار والمقالب الكثيفة الرائحة التي لا يعرف تفاصيل تركيبها ولا كنهها سواي...

إنها مكتبة أشبه بمكتبة السحرة كما تحكي عنها ألف ليلة وليلة، فيها عفاريت محبوسة في زجاجات، وأشخاص في شكل حيوانات، ومدن من نحاس، وطيور تتحدث لغات البشر، وأفكار لا يمكن أن يتذكرها الإنسان في حياته مرتين... كل شيء مرتب حسب منطق خاص خارج سياقات أي منطق آخر...

لقد فرضت علينا جمهورية النهار منطقها الخاص بإدارتها الثقيلة، وشرطتها اليقظة، وعمالها الفرحين بوطنيتهم، ونواياها التي لا تجلب سوى مصاريف جيب... وكان على الملك الذي قضى خمس سنوات في جحر مظلم وهو يفكر، يفكر فقط في مداورة ذلك المنطق وأسره، أن يؤثث مكتبة المقالب بوصفات لا يأتيها الشك من أي جانب...

لقد خططت لتفليس الشركات بصناعة نقابات وسخة، وإذلال قطاعات سيادة بتعيين وزراء ثرثارين وغير نظيفي الطوية، وضرب استقرار حكومات جمهورية النهار بالمضاربة في الأسعار...

بل إن نظريتي في المجتمع المدني لا تزال بعد خمسين سنة صالحة للاستعمال: كان السؤال الخطير المطروح على الملك هو كيف تفرغ جمعيات المجتمع المدني، وهي من أخطر الخصوم، من محتواها اليقظ والنزيه؟

كانت الوصفة تقول ببساطة: أعطها مستلزمات الطموح للسلطة وهي ستهلك دون ذلك؟

- كيف؟

- أوح لكل رئيس جمعية بأن هذا الطريق سيحمله إلى منصب سام وهو سيحرد ككل انتهازي على بطنه كالثعبان أمام أجهزة السلطة... ثم أعط كل جمعية ميزانية على حساب الحكومة وبعدها لن تبحث عن تمويل ذاتي ولا تجتهد في أداء دورها إلا بقدر الميزانية التي تمنحها لها الحكومة...

منطق رهيب ينخر المجتمعات من الداخل ويجعلها سهلة الابتلاع!.. لكن الملوك الفاسدين يعرفون القاعدة الحكيمة التالية: انشروا التفاهة والشراهة بين الشعوب وهي تتكفل برفعكم على أكتافها...

هكذا يحتاج الملك مثلا حين يستقر على كرسي عرشه بعد كفاح عشرين سنة ضد مثل هؤلاء الأغوال والأنذال والمجرمين الهاربين من الضرائب والكائنات الليلية ذات النزوات غير المنتظرة،، ويضع الجميع تحت قبضته الفولاذية أن يفكر في مقلب قديم كان قد جهزه منذ عشرين سنة، ودرس بإتقان كل جوانبه المالية، ووضعه على رف المكتبة في انتظار الوقت المناسب...

إنه مقلب ليس كالآخرين، مقلب مجنون لكنه منطقي: مكيدة صناعة حكومة ليلية!

طيلة السنوات العشرين الماضية لم تكن فكرة الحكومة لتجلب للملك أموالا إضافية، فهو مسيطر على الأرصدة وأكياس الدراهم والصفقات المشبوهة، يدير كل شيء بيده الطويلة وأسنانه الجيدة الرصف... لكنه الآن في حاجة إلى مصادر وموارد جديدة ودقيقة وعليه أن يتذكر وصفة مؤجلة في مكتبة المكائد منذ عشرين سنة... يوحي بالفكرة إلى أحد أنذل رجاله

وأكثرهم شطارة... الحاج كلاهم... وينتظر أن تنضج هذه الفكرة الكبيرة في رأسه الصغير...

*

لكن اختراع حكومة ليس بالأمر الهين...

الحكومة... لا أعرف من وصفها بأنها شر لابد منه... وهي كذلك في الحقيقة... ففي اعتقادي أن أسوأ اختراعات البشر هو اختراع الحكومات...

قبل اختراع الحكومات كان الناس ينهضون من نومهم متى شاؤوا، ويعملون ما يشاؤون، ويتزوجون أي امرأة أعجبتهم... لكن حالما جاءت الحكومة فرضت عليهم مواقيتها فأصبحوا ينهضون قبل ازدحام المواصلات، ولديهم رب عمل يعنفهم إذا تأخروا، وأكثر من ذلك عليهم أن يوقعوا على عقد زواج أو وثيقة طلاق لمجرد التهاب خصاهم...

لكن بالمقابل لا يمكن أيضا تطويع الرعاع في مشاريع مفيدة لدفع الضرائب إذا لم تسحقهم، إذا لم تهنهم، إذا لم تُدرّ جبنهم وجريمتهم من خلال برنامج صارم، وقوانين قادرة على إطلاق الرصاص... وهذا يستلزم وجود حكومة...

درت أياما مثقلا بهذه الفكرة الجهنمية: صحيح إطلاق الرصاص فكرة رائعة، لكن علينا صناعة قوانين جيدة التسديد وإلا سنعود إلى حكاية الديمقراطية التي أوجعت رؤوسنا بها جمهورية النهار...

بالطبع، كنت أعرف أن الحاج كلاهم كان يحاول أن يأكل أذني، كما يقولون، لأنه يبحث عن طريقة ما لتخفيف بعض أعبائه إزاء خزينة جلالتنا... وكان علي حينها أن أركله على أليته وأعينه رسميا وزيرا أول كي أبدأ به الحساب...

استدعيت حرسي الخاص: جيئوني بالحاج كلاهم... أريد أن أجعل منه رئيس حكومة...

نظروا إلي بدهشة : من ؟. ذلك الوسخ الذي لا يمسح أنفه؟..

قلت لهم بهدوء: أغبياء... هل تريدون رئيس حكومة و... نظيف الأنف أيضا... لا.. هذان شيئان كخطين متوازيين لا يلتقيان أبدا مهما امتدا...

بما أنني لا أريد أن أصنع حكومة تجهل ما يحدث في شوارعها... لابد لي من أوسخ الرجال أنفا وذمة في مملكتي... كل الذين لديهم أخلاق أو ثقافة أو جبن ظاهر لا أشرفهم بأن يكونوا من وزرائي... وأضيف لكم مقياسا صارما: الوزير الجيد في حكومتي هو من يدفع الضرائب... ولابد أن تكون له خصيتان من حديد!..

كان القناع الجاد الذي وضعه على وجهه، حين كان يتحدث بجدية غير معهودة فيه عن ضرورة اختراع حكومة لإدارة شؤون دولتي، هو الذي أثار انتباهي... أخيرا هذا البهلوان الذي يستمتع بابتلاع رزم الأوراق المالية والصفقات المسمومة وبعض الآدميين السمان، ويأخذ الدنيا من جانبها الضاحك... ها هو يسدل قناع الجدية المثير للضحك على وجهه:

- لقد عم الفساد يا جلالة الملك وتكاثر علينا الزبائن حديثي النعمة الذين يتهربون من دفع الضرائب علانية ولم يعد في استطاعتنا مراقبة مصدر رزقنا!؟

سمحت عن قصد لحوار صم من هذا النوع يدور بيننا بالشكل التالي:

نصنع حكومة؟ ماذا نفعل بالحكومة؟ نحن لدينا حكومة النهار وهي تقهرنا وتذلنا وتفرض علينا ضرائب دون سبب... ألا

تكفينا... لا... لا... أنا لست مقتنعا بحكاية صناعة حكومة ليلية...

الحكومة يا جلالة الملك تمنحنا شيئين...

- يهمني شيء واحد، والآخر خذه لك... هل تمنحنا أموالا أكثر؟!

- يا جلالة الملك أقطع كلامك بالعسل، الناس يستوردون حكومات من الشرق والغرب في صناديق وحاويات معدنية، تماما مثل مصانع المفتاح في اليد الشهيرة... لماذا هذا التعب كله؟ أنا أقول لك... لأن فوائد جمة وأموالا عظيمة يجنونها من هذا الوهم...

- كيف؟..

- صناعة حكومة يا جلالة الملك تسمح دائما باختراع القوانين والدساتير حسب المقاس والتي تتحول إلى سلاح تشرعه في وجه من تشاء... القانون كما لا يغيب على نباهتك شيء عظيم... إن كلمة قانون يونانية قديمة وتعني العصا المستقيمة، والعصا بالذات هي ما يقوم قامات هؤلاء البغال... ألا يقول المثل عندنا أضربه يعرف مضربه... بل أقول أكثر من ذلك... القانون، يا جلالة الملك، عبارة عن عجينة كبيرة تخبزه مثلما تشاء، وتخبز به من تشاء... القانون - قال كمفكر جليل - يمكنك أن تصنعه على شكل مقص أو مطحنة أو مدفع إذا تكاثر عليك الخصوم!؟

كان يفكر بصوت مسموع أمامي وهو يكرع كأسه التي لا تفرغ فيما إذا كانت الحكومة هي التي خلقت الأولى أم الشعب؟ هذه المعادلة البيزنطية كانت بسيطة بالنسبة لمنطقه الدائم الاعوجاج: إذا لم تكن هناك حكومة لا يوجد شعب... ماذا يفعل

الشعب بدون حكومة؟ وإذا لم يكن هناك شعب يدفع الضرائب لا نعرف ما تفعل الحكومة؟

وكان يحاول أن يتابع منطقه ككل مرة أمام هذه الأسئلة الحرجة: لدينا في هذه الجهة من الأرض شعب كثير وحكومة قليلة... ولذلك علينا أن نعكس المعادلة: سنصنع دولة كثيرة ثم نستدعي لها من شئنا من الشعب القليل قصدي المفيد... فكرة جيدة أليس كذلك؟ ستسمح لنا هذه الطريقة باختيار شعبنا حسب المقاس! كل الذين ليست لهم سوى مصاريف جيب سنطردهم من دولتنا... كل الذين لديهم أخلاق أو ثقافة أو جبن ظاهر فيهم لا نشرفهم أن يكونوا من رعاياك يا جلالة الملك... كل من لم يشف من قلبه ويعجز عن رمي ماضيه في أقرب القمامات العمومية، لا نشرفه أن يكون وزيرا في دولتك... سنضع مقياسا صارما: المواطن الجيد في دولتنا هو من يدفع الضرائب... وإذا شئت أن تتشدد كعادتك أضف مقياسك الخالد: ولابد أن تكون له خصيتان من حديد...

كان يتحدث ويتحدث وأنا أفكر في شيء واحد: صحيح، هناك رزم من الأوراق المالية مفقودة في هذه الفوضى العارمة التي ابتلينا بها، وعليك يا جلالة الملك أن تتخذ موقفا عاجلا!؟

قدم لي بيانات وحسابات مقبولة عن المتهربين شهريا من الضرائب، وبعض الصفقات التي تمت تحت أعيننا في جمهورية النهار... وبعض الخدمات التي لم تصلها أيدينا بعد؟! دارت الفكرة في رأسي مثل عاصفة خريفية: لقد نضجت الفكرة وحان وقت القطاف...

قبل أن يغادر المكان بنفس القناع الجاد الذي يبدو على وجهه مضحكا وساذجا، أضاف: وإذا أطلقت يدي يا جلالة الملك

سأصنع لك علما ونشيدا رسميا وحرسا جمهوريا يقدم لك التحية حين مرورك، وبعض الرجال الوسخين لتولي مهام رؤساء أحزاب المعارضة... هذه في الحقيقة مشكلة عويصة لكنها مفيدة للملمة رزم الأوراق المالية الضائعة بين هذا الركام من البشر...

*

بعض الأفكار قد تبدو ساذجة في بداية الأمر لكن حالما يتأملها الملك ويمشمش أطرافها حتى يرى فيها فوائد لم تكن بادية للعين المجردة...

لقد قلت في الماضي أن على الملوك أن يروا ما لا يراه الآخرون، وأن يدربوا حواسهم على شم رائحة القطع النقدية حتى ولو يتم غسلها وتبييضها بالمنكرات الكحولية أو الكيماوية...

هل يعرف أحد ما قيمة حكومة في هذا الشعب الهارب من الضرائب كما يهرب الإنسان الآرق من البعوض؟... إنها ببساطة لملمة الشبكة من كل أطرافها كي لا يهرب السمك؟! وربما بقدرة قادر ستجنب الملك ركل رعية مسكين لا يملك ما يذهب به إلى الحمام لتنظيف أليته؟!

استحضرت تلك الخطة الجهنمية القديمة، وأغلقت الباب على نفسي أسبوعا كاملا... وجلست وجها لوجه مع فكرة الحكومة: كيف أوزع يدي على آخرين؟ كيف أجعل من كل إصبع فيها قبضة ضاربة؟ الإبهام أسحق به النوايا السيئة... السبابة أبصم بها على أرواح المتهربين من الضرائب وأعد بها رزم الأوراق المالية... الوسطى يليق بتعليق الخصوم من حناجرهم... البنصر يليق للحشر في أدبارهم... المشكلة الصغيرة هي أنني

لم أكن أعرف ماذا أفعل بهذا الصغير والحيوي الذي اسمه الخنصر... وبعد تفكير طويل قلت: سأعينه جاسوسا ماليا على الحكومة؟

لكن السؤال المحير يبقى: كيف يمكنني صناعة حكومة لا أدفع لها رواتب ولا أصرف على لهوها وقحابها من ميزانية الملك؟

كل الحكومات تثقل كاهل ميزانيات دولها برواتب ضخمة ومصاريف يلطشها الوزراء من هنا وهناك لينعموا بمباهج وامتيازات السلطة...

استدعيت وزيري للحكومة على عجل:

- إلى م توصلت؟

استعرض علي خطوطا عامة عن السياسة التي ينتهجها، وقائمة المناصب المقترحة وأسماء شخصيات معروفة بكفاءتها في الوسط الفاسد الذي يدور فيه، ومع كل اسم كان يضيف بعض المعلومات الثمينة عن دوره في إضفاء شرعية معينة على الضرائب التي يجمعها... و... و... وبعد ذلك كله، وربما لمجرد إثارة أعصابي، بدأ يتحدث عن أهمية إطالة أعمار دافعي الضرائب وضرورة وضع سياسة صحية وتربوية وترفيهية و... و...

تأملت بلاهته التي لا يمكن الشفاء منها:

- احتفظ بسياستك لك... أنا لا أريد تأسيس جمعية خيرية... أنا أريد تأسيس حكومة على شكل شركة، أنا مديرها العام والمساهم الوحيد فيها... سياستي هي ما تسمعه الآن... لدي يدا واحدة استعملها للقتل، بها خمسة أصابع كل إصبع هو قبضة ضاربة لها حقيبة في حكومتي...

كلف مرزوق الحداد بحقيبة شراء وبيع كل ما يراه مفيدا لنا... والكولونيل محيرقة كلفه بحقيبة جباية الضرائب الصغيرة والمتوسطة فهو يستيقظ في النهار ويعرف ما يدور في القطاع العام... وجئني برشوان وزيرا للإشاعات وزراعة فواكه القنب والحشيش وهو يتكفل بترقية وتطوير البلادة المفيدة في مملكتنا... وجئني بالحاجة قمير وزيرا للعائلات غير المحترمة وهي تتكفل بتزويد المملكة بدافعات الضرائب غير المحترمات... وأنت إصبعي الإبهام الذي أدوس به أي واحد فيهم لا يقوم بواجباته الحكومية كما يجب؟..

أضيف شيئا مهما: لا رواتب خاصة ولا مصاريف زائدة... تأخذون جميعا نسبة مئوية على أعمالكم... الخمس منها مثل أصابعي الخمس... يكفي...

قال باندهاش: حتى أنا يا جلالة الملك؟

- حتى أنت... أنت خاصة لا تخطئ... لقد غفلت ذات يوم على مدير مكتبك طرفة عين فكاد يسمن على حسابك!؟

رأيت الأسف في عينيه وهو ينظر لمسدسي فاغرا فمه في وجهه.

قبل أن أوقع قرار تعيين الحكومة رسميا، قال فيما يشبه الرجاء: وماذا نفعل بصديقنا الصغير والحيوي بلعوط... سيحزن كثيرا إذا لم تكن له حقيبة في حكومتنا وقد أسدى إلينا خدمات جليلة...

قلت: عيّنه مراقبا ماليا يتولى شؤون التدقيق في أخطائكم الدائمة في الحساب...

انتهى الكلام ورفعت الجلسة...

*

لكن الوصفة القديمة التي أعدها الملك لا تنتهي هنا، فالحكومات خادعة ومخاتلة بطبعها، وعلى الملك أن لا يتركها هكذا كقطيع بلا راع، بل عليه أن يوفر لها الأسلحة والتخويف الكافي كي تقوم بمهامها كما ينبغي... ولكي يضمن كفاءتها ووفاءها، عليه أن يضع وراء كل وزير وزيرا آخر مرشحا يتقن النميمة والقوادة...

وأخيرا يخترع بين وزرائه أوهاما بكفاءتهم لقيادة الحكومة وهكذا يؤجج بينهم المنافسة غير الشريفة كي يضع الجميع في جيبه و... ينتظر.

جمعت حكومتي في أول اجتماع رسمي لها في قبو تحت ماخور الحاجة قمير، سلمت لكل واحد قائمة بجنوده وجواسيسه وخصومه، وقلت لهم: الآن أضع أرواح دافعي الضرائب بين أيديكم... اذهبوا فأنتم الطلقاء...

بالطبع عليه أن ينتظر أن الحاجة قمير، التي فاجأها التعيين كوزيرة للبنات غير المحترمات، أن تعرض عليه كاعتراف بوفائها المطلق أجمل البنات اللواتي ضمتهن حديثا لعائلتها: أنت اكتملت مملكتك الآن وعليك أن تفكر قليلا في نفسك... لقد وجدت لك زوجة لم ترها في الأحلام... طويلة نحيفة شهلاء وبلهاء... إنها تشبه عارضات الأزياء اللواتي نراهن في التلفزيون... ضاجعها جيدا وأطعمها جيدا وهي تتكفل بغسل رجليك قبل النوم وبعده... ستلد لك أسودا وغزلانا وتنشئ لك عائلة محترمة ككل الملوك الحقيقيين...

وينظر إليها الملك من أعلاه:

– من تكون هذه التي تتزوج الملك، وتلد له ما يؤثث حديقة حيوانات؟

وسيجد بعد بحث بسيط أنها ابنة أختها العانس التي قيل أنها ولدتها منذ أربعة عشر عاما من علاقة عابرة مع بحار عابر عند الجدار الخارجي للميناء، كانت حديث الناس في جمهورية النهار... شهلاء بلهاء تجرجر الشارع وراء شبر القماش الذي يغطي منبت الفخذين ومنبت النهدين... وحين يمحص المعلومة جيدا يكتشف الملك أن إلحاح الحاجة قمير وراءه هدف غير معلن: الحصول على عفو ضريبي من جلالة الملك لأن مصاريفها على تجميل بناتها أعلى من مداخيلها...

يضحك الملك ويقول لها:

- إذا لم تحققي توازنا ماليا في الميزانية سأستبدلك بوزيرة أخرى شهلاء بلهاء!؟

لكن العرض الذي تقدم به رشوان كان الأخطر فقد طلب استصدار أمر ملكي بمنع زراعة القمح في حقول المملكة الهضاب لأنها صالحة لزراعة الحشيش والبرسيم، وربما البقول، أما القمح كما قال فإنه مدعم من طرف جمهورية النهار وفوائده على خزينة حكومتنا قليلة... وتفرجت بمتعة على المعركة بينه وبين الوزير الأول: كيف تفكر هكذا يا ابن الكلب... هل يتغذى دافعو الضرائب على الحشيش والبرسيم والبقول... أم تريد أن يموت الناس جوعا كي تحرم الخزينة من موارد مالية مهمة... وماذا نفعل بالحكومة حينها إذا مات هذا الشعب جوعا... هذه مؤامرة لا يمكن السكوت عنها!؟ قال رشوان ببرودة أعصاب يحسد عليها: وهل نحن حكومة الناس يا رئيس... نحن حكومة دافعي الضرائب فقط وهؤلاء لهم من الأموال ما يكفي كي يستوردوا الخبز والكافيار من أوروبا... من نعم اللّه أن أوروبا تقع على بعد ساعة من مطارنا... ألا يصبروا ساعة على الجوع؟!

قلت سابقا : إن كل الأفكار في حاجة إلى تمحيص لكن بعضها - أقول الآن - في حاجة إلى ثلاجة لحفظه وقتا أطول لاستعماله عند الحاجة بشكل أفضل...

*

11

كم تكلف صناعة عائلة من العدم ؟ بضعة دنانير إضافية!..

قلت في السابق أن على الملك اختراع فرح بين الحين والآخر لإسعاد رعاياه ولطش بعض القروش الباقية في قعر جيوبهم... وهل هناك فرحا أجمل من صناعة طومبولا على شكل عائلة حميمة تحفظ ظهر الملك من الغيبة والنميمة...

لم أكن طيلة حياتي في حاجة إلى أب وأم، فقد كنت غير مرتاح لآباء وأمهات زملائي الذين يزورونهم في المدرسة ويعنفون المعلمين لسوء نتائج أبنائهم... كانت نقاط امتحاناتي دائما في الحدود الدنيا للمعدل... أغش... وأغير أوراق امتحانات التلاميذ النجباء بأوراقي... وأشتري أحيانا بعض المعلمين البلهاء بأكاذيب بيضاء عن حب تلميذاتهم لهم... لكن لا أحد كان يعنفني على سوء نتائجي المدرسية... كنت مرتاحا من هذه الناحية فالآباء في نهاية الأمر عبء ثقيل على أكتاف أبنائهم.

سأبرر الفكرة أمام مرآتي بهذا الشكل: الثقة منعدمة... والأيدي تتلصص أحيانا حتى على محبة الخاطر!...

لا، هذه مجرد أكذوبة... هذه ليست أفكار الملك... من يعرف كيف يفكر الملك؟ من يعرف كيف يحسب الملك؟ لابد أن مكيدة جهنمية أخرى وراءها أكداس من الأوراق المالية...

الملك طاهر السريرة، وهو يفكر بصوت عال أمام المرآة: وجود إخوة ينهبون بعض الأرقام وراء الفواصل لا يشكل مشكلة اقتصادية بالنسبة لي... وجود إخوة لك هو بمثابة وجود ظلال لك تنتشر على مساحة هذه الغابة النفسية المعقدة... والتي ستجعل الحكومة والشعب معا مراقبين من طرف كائنات عرقية، مهما يكن، في مجتمعنا الذي لا يزال يقدس العائلة، هم الأقارب والأقرب للملك...

كانت فكرة سيئة للغاية، لكن الملوك يضطرون أحيانا لبعض التنازلات التي تؤثث أرصدتهم بمزيد من الحماية، وربما السعادة...

المشكلة أن العائلة لا يمكن شراؤها كما تشتري الأسلحة من السوق السوداء، ولا قطعها من الأشجار الهجينة التي تحف أرصفة الجزائر. وأكثر من ذلك ستجد المعارضة التي سأصنعها فيما بعد موضوعا للتشدق بانحطاط أصولي وبأنني مقطوع فعلا من شجرة... وهذا خطير على استقرار مملكة ذات شأن مثل مملكتي...

الحل الممكن إذن هو أن أخترعهم، مثلما اخترعت حكومتي... وأن أخترعهم أنا دون معرفة ولا تدخل أحد، وإلا ستتحول إلى أضحوكة...

إنها مهمة خاصة جدا وعلي أن أشمر على ذراعي وألطخ يدي...

كانت الخطة الجهنمية القديمة تقول: كل الزعماء لهم حرس وأسلحة وعائلة محيطة بهم تحرسهم من هجانتهم وتنهب أموالهم وسمعتهم غير الحميدة... طبعا من السهل في هذا البلد

أن تشتري حرسا وقنابل مسيلة للدموع وبضع قاذفات صواريخ إذا عرفت الأيدي التي تعرضها للبيع..

لكن شراء عائلة بدا لي للوهلة الأولى أشبه بمعجزة... لقد قضيت طفولتي كلها مقتنعا أنني مقطوع من شجرة كما يقول التعبير الشعبي عندنا، بل أن بهلوانا ضخم الجثة قال لي مرة أنني ولدت من عاصفة رعدية حينما قضمت أذنه في معركة ملاكمة غير متكافئة!

درت أياما في أرجاء المدينة لوضع قائمة دقيقة بالمقطوعين من شجرة، وهذا التعبير الشعبي الطريف يسمي بجفاء أولئك الذين ليست لهم أصول معروفة، والحقيقة ليس لهم أباء معروفون. ففي الغالب لا يشك الناس أبدا في الأصل الأمومي للرجل ولكن في الأصل الأبوي. ففي المخيلة المريضة لهذا المجتمع يمكن للإنسان أن يقول هذه أمي... أما أن يقول هذا أبي فذلك يبقى مجرد احتمال... لذلك من الأفضل أن يقول هذا أبي المحتمل، ويكون حينها صادقا في انتسابه...

ولكي أتجاوز هذا المطب السلالي توليت بنفسي اختراع شجرة سلالة غرستها في الجهة الخلفية من المملكة وبدأت أسحبها ببطء باتجاه الضوء...

سيكون جذعها على شكل جد من أجدادنا القراصنة الذين لا يزالون يستثيرون خيال العامة لأنهم حموا هذه المدينة ودافعوا عنها طيلة خمسمائة سنة... ومن أغصانها الشهيرة أب شهيد خاض في الخفاء الثورة التحريرية بشجاعة لا مثيل لها، ونسجت بعض الخرافات السرية حول بطولاته... ثم كلفت نذلا شهيرا بنشر سلسلة من المقالات عن سلالة مجيدة ليس لها تاريخ في هذا البلد الذي لا يحترم تاريخه...

وحين بلغ ذلك مسمع الحكومة هبت بكل أتباعها لتمجيد وتخليد مآثرهما غير المعروفة سابقا... بل أن أحد الانتهازيين كلف نفسه تقديم اعتذار رسمي باسم الحكومة الجزائرية على هذا النسيان غير المقصود...

وبادرت حكومتي بالطبع إلى صناعة جنازة ضخمة لهما، كتعبير عن الأصول البطولية والشريفة للملك... وأغرقت بدوري قبرهما الوهمي الذي حفرته في الجهة الخلفية لحانة منتصف الليل ببعض الأزهار والدموع الاصطناعية...

وأخيرا اشتريت بعض العجائز الثرثارات لإعادة تطريز حكاياتهما في الحارات الشعبية...

لكن صناعة أم على المقاس كان من الصعوبة بمكان، ذلك أن الأم هي التي نرى في عينيها تاريخ الابن الحقيقي...

بعد تفكير معمق وبحث طويل، اقتنصت من مدينة مجاورة عجوزا غابرة فقدت ذاكرتها إثر سقوطها من شجرة تين قيل أنها أقسمت أن تسكن بين أغصانها حتى تعطيها الحكومة سكنا بالمجان... أعطيتها بالمجان قصرا وملابس حزن سوداء وخدما وحشما وناديتها: أمي العزيزة!!؟ وطلبت من وزرائي الذين حشرتهم في قبو المترين المربعين، بمناسبة حفل مراسيم تنصيب الحكومة الجديدة، أن يقدموا لها فروض الطاعة العمياء، لأول وآخر مرة طبعا...

كانت بلهاء لا تعرف ما يدور حولها، لكنها تحولت بفضل العصا السحرية للسلطة إلى أروع أم أنجبت أروع ملك على تراب أروع وطن... تماما مثلما يحدث دائما هنا... ولم يبق أمامي سوى اختراع أخ أو اثنين... وربما، ربما أخت... أهذا ممكن؟ فكرت بغضب: أخت يركبها الرجال... لا... لا... مستحيل...

*

كان أخي الأكبر الذي اخترته بعناية رمادي الروح... يائسا تماما من الحياة... كان مدينا لنصف المدينة ببعض مصاريف الجيب التي يعجز دائما عن تسديدها... قام بالعديد من العمليات الفاشلة للقتل والسطو والانتحار وحتى الهروب العلني من مقرضيه... وأخيرا إلتقى ذات يوم بنغل مثله قيل أنه أنشأ فيه نميمة على شكل قصيدة شعبية أضحكت الحاضرين، فقام إليه وأخرج لسانه وقطع نصفه كي يحوله هو بدوره إلى ضحكة أبدية في حنجرة المدينة.

انزوى وراء عيون الدائنين والشرطة بضع سنوات في مصب مجاري قديم تحت المدينة... ظن الجميع أن النمرود، وهذا هو اسمه، قد مات بشكل من الأشكال منذ زمن طويل، فالإنسان من الصعب أن يعيش في هذا المكان دون لسان ينمُّ به أو يعلك به أعراض الآخرين مدحا وهجاء...

نسي الجميع النمرود بعد ضحكة طويلة، واعتبره الجميع مات، ذلك أن الموت في هذه الجهة من الأرض لا يحتاج إلى طقوس ولا إعلانات ولا حتى جنازات محترمة... وقد يموت نذل من هذا النوع وبعد عشرة أيام يأتي أحد دائنيه طالبا توفية حسابه فلا يجد أحدا يتذكر أنه عرف هذا الشخص في الماضي...

لكنني كنت أعرف أن النمرود جبان ولا يمكن أن يموت هكذا مجانا ويريح البلاد والعباد من نجاسته... بحثت عنه في أسافل بعض الأحياء المجاورة، وأطلقت عليه أحد كلابي المدربة ليضربه ضربا مبرحا، ثم خرجت عليه أنا ككل بطل شجاع لإنقاذه...

أخرجته حيا من تحت جبل من القاذورات وزجاجات النبيذ وصفائح الكيف غير المعالج...

جئت به ليلا إلى مغطس حمام مملوء بالصابون وماء جافيل ثم غسلته بكحول صيدلانية لتطهيره من كل ميكروبات الماضي... ألبسته بذلة كحلية وأعطيت له اسما مستعارا: معبوس... واسم أب محتمل وغلافا ماليا دافئا وبعض زجاجات النبيذ... وأغلقت باب غرفته ورائي وتركته إلى أجل مسمى...

أما من سيصبح أخي الثاني فقد كان منغوليا معقولا، له قاموس كلمات جد محدود ويعيش في كهف خمارة دون نهار ولا صحو... قمت بتهريبه داخل برميل نبيذ قديم، ورميت به في شاحنة النظافة البلدية وعندما وصل الموت حنجرته تدحرج البرميل في مزبلة عمومية، وانتهى بين يدي...

قمت بتطهيره وإعادة ترتيب هندامه وسميته على بركه اللّه عباس... وضعت بطاقة تعريف مزورة في جيب قميصه... ثم ألحقته بأخيه المفترض معبوس في الغرفة المغلقة...

كانت المرحلة الأولى من برنامج اختراع عائلة قد انتهت... وكان علي إيجاد طرق ممكنة لتسويق هذه الحادثة المباركة لربح بعض الرزم المالية السهلة...

أطلق وزيري للإشاعات إشاعة على مسمع من عجائز وبطالين تبدو جادة كحقيقة: الملك في انتظار زيارة من أخويه القادمين من أوروبا... تخيلت حواجب المدينة ترتفع: هل للملك أخوان في أوروبا... غريب... لم نسمع بذلك من قبل... ويتكهن آخر: لابد أنهما ملكان مثله، نحن على كل حال لا نعرف كل ملوك أوروبا المنسيين من طرف شعوبهم على حافة التاريخ!؟ ويقول آخر: هذا الملك الرائع أكبر صانع غرائب في العالم... إنه لا

يكفُّ عن مفاجأتنا بما يوقف أدمغتنا عن العمل!.. ويقول آخر بوقاحة مقصودة: كيف لهذا المقطوع من شجرة أن تكون له عائلة وإخوة في أوروبا؟.. سأسمع هذه النميمة وسأخصي قائلها...

اختفى الملك ثلاثة أيام عن الأنظار في البيت الجبلي للكولونيل... وبدأت الرهانات الوطنية الكبرى تعطي ثمارها...

*

كان الكولونيل محيرقة، وزيري للضرائب الصغيرة والمتوسطة هو الذي ابتكر طريقة الطومبولا الملكية الكبرى لتشجيع المواهب وفتح شهيات الطمع... كان يصرح بحماس وعيناه جاحظتان وقناع الاهتمام مسدل على وجهه كما لو أنه جاد بالفعل:

- تنظم مملكتنا الموقرة تحت الرعاية السامية لجلالة الملك أعظم طومبولا في التاريخ... كل من يدلي بمعلومات أو صور دقيقة عن أخوي الملك ينال الجائزة الملكية الكبرى... الجائزة الملكية تحت الرعاية السامية للملك... الجائزة الملكية عبارة عن شاحنة صغيرة من القطع النقدية المطهرة من الضرائب... هيا... ألعبوا تربحوا... لا تفوتوا فرصة العمر... لدينا تذاكر من كل الأحجام والأوزان..إلعبوا... تربحوا... لا تفوتوا الفرصة... بعض اللعب يقرر مصير البشر... ألعبوا تقرروا مصيركم كرابحي شاحنة صغيرة من القطع النقدية المطهرة من الضرائب...

كانت اللعبة كبيرة... أليست ملكية؟ قال وزيري للضرائب... هذا الشعب لا يعرف شيئا غير اللعب حتى تحول هو في حد ذاته إلى لعبة... لعبة كبيرة... فلنلعب جميعا؟!

عمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها حمى اللعب... أسالت أنهارا من لعاب الطماعين... اشترى الناس كل ما طبع من التذاكر

منذ انطلاق الطومبولا الوطنية الكبيرة، كما أسموها... واستغرق الناس في التكهن بصورة إخوة الملك: كيف هم؟ هل هما طويلان أم قصيران... أصلعان أم يضعان باروكات على رأسيهما مثل ملكنا المعظم... هل لهما شنبات أم أصلعا الشوارب... بيض أم خلاسيين كأمهما... سمان أم ذوا جسدين رياضيين؟..

بلد من أقصاه إلى أقصاه غارق في التخمين واللعب. وبدأ الرسامون والمصورون والأدباء يأتون بأطنان من الصور والرسومات والمعاينات لصور محتملة لأخوي الملك لعلهم يكونون أولى بالجائزة بما وهبتهم العناية السماوية من مواهب فذة... وضعوا كل مدخراتهم في صندوق الجائزة الوطنية... وبدأوا ككل فنانين خفاف الرؤوس يحلمون بما يفعلونه بأموال عظيمة ستهطل عليهم كما المطر من سماء لا يعرفون حدود كرمها..

- أخوان للملك قيمتهما طن كامل من القطع النقدية الصغيرة؟!

- لابد أن يكونا من ذهب إذن؟!

ارتفع صوت التخمينات في الشوارع عاليا، وراح الناس يضربون أخماسا في أسداس... وتحولت المدينة كلها إلى فم واحد يمضغ نفس الحكاية: كل شيء ممكن في بلد كل شيء ممكن هذا!؟

ودون شك سيتساءل أحدهم: كيف استطاع الملك المعظم أن يتحفظ طيلة هذه السنوات عن ذكر عائلته... ويجيبه آخر: كان يقول دائما أن شعبه هو عائلته... ويسمع تنهيده مصطنعة: كم هو رائع ملكنا!... ويتشعب الحديث بين أشداقهم التي لا تتعب أبدا من مضغ الكلام، لكنهم يعودون دائما إلى صلب الموضوع: من هو المحظوظ يا ترى هذا الذي سينال حمولة ضخمة من القطع النقدية؟!

*

من المعروف أن الإشاعة ككرة الثلج كلما تمضي في انحدارها تكبر وتزداد صلابة. هكذا أصبحت بالنسبة إليهم سرا مغلقا يحرزون ويفزرون كنهه العصي في المقاهي الشعبية والحانات المعتمة وتحت حيطان الحارات الشعبية... كانت الكلمات كلما تكثر وتتراكم تزيد الموضوع شروحا وتفاسير وتأويلات وبالتالي غموضا وميوعة، وينتهي الأمر إلى أن يصبح حقيقة... وكنت سعيدا بذلك...

اتصلت بي فنادق تعرض صورا لزبائنها، ومراكز شرطة ومستشفيات وبعض الخواص الذين لديهم غرف مكتراة... واقتاد إلي بعضهم غرباء وصلوا للتو إلى المدينة... وحمل لي أحدهم كلبا وسلحفاة وجدهما في جناح بفندق خمس نجوم... ثم وعن طريق الصدفة البحتة، تماما كما يتطلب السيناريو، وصلت مجموعة من الصحفيين إلى المطار للقاء أخوي الملك في الصالون الشرفي...

كانا في صحة جيدة وأناقة ملفتة للانتباه، يغطيان عيونهما بنظارات شمسية سوداء، ويغطيان بشرتهما بطبقة كثيفة من البودرة والطلاء... يرطنان بلغة لا يفهمها أحد، ويضحكان ببلاهة لكل ما يصادفهما... أحاطهما حراسي الشخصيين كحصن منيع لمنع أي كان من الوصول إليها... سمحوا لهما فقط بتحية الجماهير المصطفة على أرصفة المطار من بعيد...

كانت اللعبة طريفة، غير متقنة ولكنها جيدة التصميم... حتى الذين لم يصدقوها رأوها بأم أعينهم وآمنوا بها... وكان يهمني في كل ذلك أن أغرس من وراء الستار شجرة السلالة التي طالما كانت مغروسة دون فائدة في قلبي... صنعت أغصانها من إخوة

بلهاء وأم مرحومة وأب محتمل خفيف كذكرى وبعيد علي بالقدر الذي لا أسمع تعنيفه وكلماته الثقيلة النابية...

قلت دائما أنه لا يمكن بناء مملكة حتى في الحلم على أشياء مشكوك فيها!؟ وإنني لأستغرب كيف أن بعض الملوك الذين تنقصهم المهارة، يستعملون سلطاتهم لحمل الناس على تصديق معجزاتهم وأكاذيبهم تحت ضغط القوة، وهذا بالنسبة لي خطأ فادح يعاقب عليه القانون الذي اخترعوه هم...

الناس سذج بطبيعتهم وعلينا فقط أن نعطيهم الوقت الكافي كي تهضم أدمغتهم الصغيرة بعض النيازك التي نقصفهم بها!؟

أغفلت تلك الحادثة بضعة أيام حتى تأخذ مجراها في التاريخ العادي للأسرة الافتراضية التي اخترعتها، ثم انتقلت بها للمرحلة الحاسمة...

بعض الأحداث الشبيهة بالمعجزات، كما هو معروف، علينا أن نتركها لنفسها كي تأخذ مكانها في الحياة حتى يكف فضول الناس عن إثارة الأسئلة حولها وبالتالي تنتقل من مستوى الخرافة إلى مستوى الواقع اليومي المعيش وتصبح مقبولة كقدر دون أسئلة ولا شكوك.

وضعت برنامجا خاصا لظهور أخوي في أماكن عامة: مطاعم فخمة، ومناسبات حكومية منقولة مباشرة على شاشات التلفزيون، ومتاجر كبيرة يعرف أصحابها أنهما أخواي، وبعض حفلات الزواج والطلاق التي يقيمها الأثرياء في قاعات الحفلات الأنيقة... وإذا حدث واقترفا حوادث صغيرة كأن يضرب أحدهم صاحب المطعم ذا الأناقة المفتعلة، أو يفتح سرواله أمام الكاميرا على المباشر، أو يغتصب أحدهما زوجة وزير في دورة

مياه أحد الفنادق... سيتكفل حرسي الخاص بوضع الحادثة في سياقها العادي وتنتهي هناك...

أطلقت أيديهما المعتوهة في أماكن اللهو كما ينبغي، أحيانا لإحراج البعض، وأحيانا لتبذير رزم الأوراق المالية المزيفة التي طبعها الحاج كشكول بالمناسبة... وربما لمرتين أو ثلاث كانا خارج خططي لكنني غفرت لهما لأنهما جعلا مواطني مملكتي البلهاء يضحكون بملء أشداقهم.

هكذا الأخوة دائما يشبهون فردتي حذاء لكن كلتيهما تلبس في الرجل المخصصة لها.

وحين قدرت أن دورهما انتهى. اشتريت لهما تذكرتي طائرة إلى أوروبا وصرفت لهما مبالغ مالية ضخمة من سوق العملة الصعبة حيث تصنع الإشاعات وتصدق فورا. وأخذت الأول ليلا إلى مكانه في مجاري المدينة. ووضعت الثاني في برميل خمر بعثته مع شاحنة التوزيع إلى كهفه في الخمارة القديمة. وتفرغت تلك الليلة لمحو هذه الحادثة التي أصبحت قديمة...

*

12

هكذا اكتملت أركان دولتي، وعلي الآن أن أزجي بعض النصائح من كمال حكمتي للأنذال القادمين الذين سيقومون بعدي بالسطو على راحة رعيتي، مثلما قمت أنا بذلك، لكن بخصوم أقل... ففي نهاية الأمر لا شيء يزعزع الممالك غير الخصوم، وعلي أن أوجز في هذا الفصل ما يجعل الملك منيعا كحصن في قمة جبل...

من المعروف أن بعض الخصوم التافهين لا يُقدّر الملك خطورتهم حتى يشعر بأصابعهم تسلل إلى سراويله الداخلية. إنهم أشبه بقوانين الطبيعة يترتبون كنتائج لسلسلة طويلة من التفاعلات التي تبدو أحيانا لا معنى لها، لكنها في الحقيقة قادرة على كسر أسنانه وحرمانه بالتالي من الضحك أمام المرآة.

خصم الملوك العنيف والتافه في نفس الوقت هو: الضحك!..

على كل السفلة المحترمين أن يتدربوا طويلا على إخفاء هذه النزوة المشينة في الملوك، وأن لا يخطئوا أبدا في كشف بياض أسنانهم أمام الأشداق التي لا تظهر منها سواء ضحكت أو كشرت سوى الأنياب.

صحيح أن الضحك يطيل العمر، لكن ماذا يفعل الرعاع بالأعمار الطويلة إذا كانوا يتهربون دوما من دفع الضرائب؟!

لقد اعتقدت دائما أن ضحكة الملك وسام يمكن أن ينعم به على نزق قبل خنقه، أو يزجيها لمفخرة جديدة اقترفها على مرأى من الرعاع، أو حتى يهبها لامرأة عابرة للتأكد من أنه لا يزال قادرا على ارتكاب هذه الحماقة... الأوسمة في الغالب مرادفة لسعادة طارئة وتُعلق على الصدور للتباهي بها أمام الذين لم ينالوها بعد.

لكن ضحكة الملك مشكلة إذا أضاء بها وجوه الكلاب، فالكلاب عادة لا تفرق بين الضحكة التي تضيء القلب والتي تضيء الأسنان أو تثقب الرأس... لذلك تهيئ أسنانها لافتراسها في كلتا الحالتين... أليست كتب التاريخ في نهاية الأمر هي التي علمتنا أن أغلب الملوك تفترسهم ضحكاتهم وليس خصومهم؟!

الضحكة تكسر الهيبة، والهيبة هي الترس الذي يحمي الملك من النبال الطائشة... كلما كان الترس جيد الصنع كلما انكسرت عليه أطماع الغرماء في الاستيلاء على مملكتك...

قلت في السابق بأنه لا يوجد ملك حازم دون أسنان جيدة الرصف!.. لكن عليه أن يستعملها لمضغ الضحايا وليس للابتسام. فقد تفهم كلثوم عين الغزال، والتي دلفت لتوها من الباب الخلفي للمملكة في ذلك المساء الصيفي الحار، مكسوة بذراع من قماش براق ينحدر من حلمتيها إلى أسفل مؤخرتها، أن ابتسامة الملك هي عرض زواج أكيد. وستضرب على حسابه ثلاثة من دافعي الضرائب في حانة منتصف الليل ببندقية صيد قديمة استلفتها من صاحب الحانة لتتصور بها مثل كاوبوي، كما قالت...

حدث آخر يمكن أن أعزيه لابتسامة عابرة، حين التقيت أحد الذين نصَّبوا أنفسهم ممثلي الحكومة في ماخور آحميدة الكعوان، مد يده فرحا بنفسه لمصافحتي قائلا بانفعال: تشرفت جدا وكثيرا بلقائك!! وحين ابتسمت للبلاهة التي كشف بها عن المسدس المغروز في حزامه، ظن أنني لم أكن أعرف مسبقا أنه مبعوث للاعتناء بي كما يقال، ولكنه قبل أن يخرج المسدس ليطلق النار على ظهري خانته ركبتاه وانطفأت ضحكته الصفراء أمام فوهة مسدسي التي ابتسمت له كالبرق...

حتى ابن باطول رئيس حزب المعارضة الرسمي لم يكن ليتجرأ على النبش في ماضيَ الشخصي لولا تلك النكتة السخيفة التي رواها عن طاغية عربي كان يشوي خصي ضحاياه ويأكلها ويترجاهم والموت يتنازعهم أن يتذوقوا معه لذة خصيهم مشوية. ابتسمت له: ما الداعي لشيِّها وهي صالحة للأكل نيئة!؟ وكان أن ماتت الضحكة على شفتيه.

هكذا، بعض الابتسامات الساذجة تتحول في ممالك الليل إلى خصوم خطرين، وعلى الملك أن يدرس ضحاياه بشكل جيد قبل ارتكاب معصية الضحك في وجههم.

صحيح، ربما لم أتخلص تماما من عادة الضحك بحكم قلب الطفل الذي أحمله بين جوانحي، لكنني حذر من هذه الناحية فأنا أضحك حين انفرد بنفسي، أضحك كثيرا بملء أشداقي من أولئك الخصوم الذين حالما أمد أصابعي إلى حناجرهم تجحظ عيونهم وترتجف شفاههم وتصبح وجوههم مثيرة للضحك...

أنا أضحك، وقد أكون حيوانا ضاحكا كما قال أحد الكتاب في تعريف ضاحك للإنسان، لكنني ككل ملك له أسنان جيدة الرصف أضحك لنفسي في المرآة فقط.

*

لكن أخطر الخصوم في رأيي هي الصداقة...

الملك الحقيقي ليس له أبدا أصدقاء حقيقيون... الملك له رعايا وخصوم فقط، أما علاقة من نوع الصداقة فإنها تنتهي معه إلى طلب يده للزواج به!؟.

الصداقة، هذه التي لا نقدر مخاطرها حق قدرها، هي فقط القادرة على أن تأخذ بخناق الملك حتى تجحظ عيناه، وتدفع به أحيانا إلى تنازلات جسيمة قد تصل حد تخفيض الضرائب!. ذلك أن الصداقة، وهي صفة غير حميدة بالمرة، هي التي توقظ في الغالب تلك العواطف النزقة التي تفتح الباب الخلفي للمملكة من حيث تدلف في العادة الخناجر التي تغرز في الظهر والورثاء غير الشرعيين!؟

لا أعرف من هو ذلك الحكيم الذي طلب من ربه مرة أن يحميه من أصدقائه أما خصومه فهو كفيل بهم!؟. ذلك حق، فالأصدقاء يمكن أن تتاح لهم فرصة غرز الخنجر بين كتفيك وهم يحتضنونك بمحبة زائدة، أو يخبروا الشرطة عن مكانك وهم يأكلون مطمئنين على مائدتك... بل أن الأصدقاء الذين يقولون لك دائما: نعم... نعم... يشجعونك على الخطأ تماما مثل أولئك الذين يزعمون أن لديهم الشجاعة الكافية كي يقولوا لك: لا...

في الماضي كان أفضل أصدقاء الملوك الكبار سيوفهم، إليها يتحدثون وإليها يحتكمون، وبها يقيسون قاماتهم القصيرة، حتى ان نابوليون كان يباهي مؤرخيه ويطلب منهم أن يضيفوا طول

سيفه الذي يمتد من أوروبا شرقا حتى مصر جنوبا لطول قامته الذي لا يزيد عن المتر وثمانية وخمسين سنتيمترا ... وكان يمكن لرجل مثل هتلر الجبار أن يقيس قامته بمدى رمي دباباته الذي كان يصل عموديا من برلين غربا إلى ستالينغراد شرقا ... لكن تلك الصداقات النادرة عادة هي التي أودت بالأول للمنفى وبالثاني للانتحار...

اليوم يعتبر الكثير من الرعاع أن صديقهم المفضل هو جيبهم حتى ولو كان ذا محتويات غير مفيدة... وربما يصادق رجلا لمجرد الثرثرة معه أو لحاجته لقرض المال... وقد يصادق أحدهم امرأة لمجرد خوفه من خيانة الرجال...

لكن صديق الملك الوحيد الذي أوصي به خيرا هي يده، يده التي تصنع هندامه ورصيده وترتب علاقاته مع رعاياه وخصومه...

درس الصداقة معروف ومحفوظ في ميراث الممالك القديمة، فالاسكندر العظيم لولا أصدقاءه الذين أغلقوا أمامه طريق الفتوحات ما كان له أن يموت غيظا في يوم عرسه الكبير. وهل كانت حياة الأمير عبد القادر المؤثثة بالانتصارات الرائعة ستنتهي به إلى المنفى لولا تخلي أصدقاءه ومعاضديه كما أسماهم، عنه؟

حتى أصدقاء من نوع المعلمين والحكماء على الملك أن لا يأخذ نصائحهم بالجدية الكافية، فما كان لنيرون أن يحرق روما لولا النصائح الثمينة التي أزجاها له معلمه الفيلسوف سينيكا والتي جعلته ينظر للآخرين على أنهم مشعلو النار التي التهمت كنوز وأرصدة روما...

الصداقة كائن خطير، هكذا كنت أوصي قلبي، وأنا أتدرب أمام المرآة على ضغائن السلطة: يجب عليك حين تذهب إلى

بنات العجوز قمير لقضاء وطرك أن تنفرد بإحداهن في الغرفة الواحدة بعد الألف مع أن الجميع يعرف أن ماخورها يحتوي على ألف غرفة فقط... وإذا دعوت أنذالا إلى مائدتك ابعث حرسك أولا لتفتيش نواياهم... وعليك حين تريد أن ترمم صداقة من نوع صداقتك مع كيس الدراهم الذي يسمى عنتر مثلا أن تضرب له موعدا في بيت الكولونيل الجبلي، لكنك تمر بشاحنة على سيارته في منعطف طريق عام!..

الصداقة مثل الضرس المسوِّس لا تعرف متى يوجعك...

صحيح أن الملك يحتاج أحيانا للتسري، وأحيانا للفضفضة أو للكلام بصوت عال مع نفسه، ذلك طبيعي في الكائن البشري، لكن عليه بالمقابل أن يضع وراء المرآة التي يتحدث إليها خصما لدودا يحرسه من نواياها غير المعلنة...

ها هو ما يجعلني أعتبر أن أخطر صداقات الملك هي صداقته مع الوزير الأول، ذلك أنه حالما يرى ثمار برنامج عمله تنضج حتى يشعر أن له فضلا عليك، ومن حقه أن ينال تخفيضا للضرائب، بل أن نقاط فشله القليلة سببها أنت بثقل وجودك على رأسه! ذلك تماما ما حدث مع الحاج كلاهم الذي ما إن رأى أكياس الدراهم المسترجعة من المتهربين من الضرائب تملأ أقبية ماخور العجوز قمير حتى راح يتحدث عن فضائل سياسته الرشيدة، ويفاخر على مسمع مني بقبضته الحديدية التي اعتصر بها خصي خصومه... وكان علي أن أحرض عليه أطماع ابنه غير الشرعي في الوزارة الأولى وانتظر يوم الحسم بينهما...

بالطبع لم أتحدث هنا عن صداقات ممجوجة يعرفها كل الملوك، كصداقة نساء من نوع قمير والتي تؤدي في الغالب لتسلل أعدائك من جهة الحريم... أو صداقة الكتب التي كما هو

معروف تؤدي بالملك إلى كثير من التردد والمراجعة لأفكاره النيرة على ضوء ما تقترحه هذه الكتب المكتوبة عادة بعيدا عن أرض المعركة وبأعصاب هادئة... وحتى صداقة البهائم يجب أن يحذرها الملك، فنحن الآن نعرف بالدليل القاطع أنه لولا إعجاب ومحبة كاليغولا بحصانه ما كان له أبدا أن يقتنع بتعيينه قنصلا ويتسبب بذلك في ثورة حراسه عليه وبالتالي اغتياله!..

حتى حرسك الخاص، أيها الملك ، يجب أن يبقوا في حجمهم كمجرد حرس يفتحون لك الطريق في حمإ الحياة ويحمون ظهرك من ضغينة الحساد... وإذا ما اقترب أحدهم ليكاتفك فذلك معناه أنه يقيس قامته الواطئة بقامتك... أعصر خصيتيه في قبضتك وابحث له بسرعة عن بديل!

لا تثق! أيها الملك لا تثق أبدا في احتضان كهرمانة الماخور لتطييب خاطرها قبل أن تضع القيد في رسغيها فقد تكون مسلحة بمشبك حاد أو قرط ليس للزينة!..

*

لقد أوليت النسيان سابقا ببضع صفحات من التمجيد، وإنني لا أكف عن تحذير الملوك القادمين منه، فهو الخصم الوحيد الذي يمكنه أن يضع الملك في جيبه وينساه حتى يتعفن!..

ومن الطبيعي أن لا أحذر الملوك القادمين من كلام الناس... ذلك معروف، فالملك الحق لا يستمع سوى لنفسه... مثلما يضحك لنفسه في المرآة يستمع لنفسه وراء أذنيه المغلقتين... إنني أقول دائما أن أذني الملك صالحة أيضا للقبض بها على خصومه وليس للاستماع أنينهم وشكاويهم وربما وشاياتهم التي لا تجلب له مصروفا زائدا...

هناك أيضا خصم مهم لا أكف عن التحذير منه... إنه القلب...

لعلني أوليت القلب سابقا ما يكفي من التعزير والتحذير، فالقلب صحيح أنه مضغة في الجسد لكنها المضغة القادرة على مضغ الجسد كله. ذلك أن الرجال لا يُجرجَرون إلا من قلوبهم... والقلب عندما يقبض على رجل من نوع الملك يدمره ويقوِّض أطراف مملكته!..

لكنني علي الآن أن أولي خصما آخر، قد يبدو غريبا، بعضا من الأسطر الحاسمة في بناء الممالك... إنه الحظ!..

قد تبدو ضحكة الملك أو حلمه أو نسيانه أو حتى قلبه،، أقل حظا من الحظ نفسه في تدميره إذا تعلق الأمر بما يحدث في جمهورية النهار، هناك حيث البشر يصنعون حياتهم بالحظ... وبالحظ وحده يمكن لمن لا يفكر كثيرا في أعدائه، ولا يتأبط مسدسا، ولا يجبي من الضرائب سوى راتبه الشهري،، أن يتحول بين ليلة وضحاها إلى رجل ثري... ضربة حظ! ومن حظه أن لا يعلم الملك بتهربه من دفع الضرائب...

نحن لا نقدر بشكل كاف تلك العبارة التي يستعملها العامة بخفة لا تجارى: ضربة حظ!.. ربما لأن الحظ لا دور كبير له في الممالك التي نصنعها في قلب الليل بعرقنا ومسدساتنا وصدفنا المدروسة... لكن هذا الحظ هو ولي مواطني جمهورية النهار... هو الذي يرفع البعض إلى قمة الامتيازات ويخفض البعض إلى حضيض الـ ... امتيازات!..

الحظ، مثله مثل المال، سيد الناس وولي نعمهم، فقد يضرب بعصاه السحرية رجل قضى عشرين عاما ذاهبا آيبا على طرق المدرسة دون هدف واضح، يتسكع وراء فتيات وضيعات، وأحلام

غير واقعية، وينام قبل أن يغسل قدميه... لكن، هاهو يلتقي صدفة بالسيد الحظ فيحدق فيه قليلا مقطب الحاجبين ثم يهش عليه بعصاه مبتسما... ويجد الرجل نفسه وقد أصبح بين ليلة وضحاها صهر جنرال أو وزير أو جمركي فاسد أو جابي ضرائب قديم،، وينتقل من العدم إلى الكينونة العالية... من لا شيء إلى رجل... فيصبح إطارا في الدولة له مكتب فخم وسكرتيرة يغازلها وربما سيارة رسمية تتوقف لمرورها حركة المرور... الدنيا حظوظ!..

إنني أفهم تماما لماذا يلجأ بعض الناس إلى كتاب الحروز وشيوخ الزوايا، وحتى قارئات الكف والمشعوذين المشهورين، لاستدعاء الحظ إلى جانبهم لأنه إذا تعثر في هذا البلد وهو في طريقه إليك ستصبح رغم مواهبك وعضلاتك مجرد مواطن لا حول له ولا قوة...

لذلك كله أشجع الملك على أن يصنع حظه مثلما يصنع مملكته عشبة عشبة وليس صدفة صدفة... وإلا سيؤدي به حظه إلى حضن خصم لا يقهر... إلى حضن الحلم...

*

من خصوم الملك الألداء أيضا: الحلم!..

ليس بالحلم تبنى الممالك، كما هو معروف، ولكن بعض الملوك يبنون ممالكهم في أذهانهم ثم يشرعون في الاستيلاء عليها شبرا شبرا، وينتهون في الغالب إلى مجرد الاستيلاء على أوهامهم... هذا إذا لم تود بهم إلى التهلكة...

الممالك تبنى باليد وليس بالحلم... حيثما وصلت يدك فثمة حدود مملكتك.

إنك لا تستطيع أبدا أن تقول أنني المالك الوحيد لخزنة الحاج كلاهم حتى تضع يدك عليها، ولا تستطيع أن تكتفي بالحلم وأنت

تفكر في المداخيل الفلكية التي يلطشها الكولونيل محيرقة من منصبه الجديد... لأن يدك ستعتبر حينها قصيرة.. واليد القصيرة لا فائدة أن تسلحها، كما يقول الغلابة، بالعين البصيرة...

من المعروف أن الأحلام تؤجج الأطماع، والأطماع في الغالب هي مقتل الملوك... لقد رأيت بأم عيني بشرا يتجندلون على أرصفة أحلامهم، ورعايا تتقوض قاماتهم تحت ركام أطماعهم، ومات الكثير منهم تحت قبضتي وهم يحلمون بنهب بعض صلاحياتي أو ضرائبي... مجرد أحلام كانت في البداية وردية لكنها اسودت في وجوههم، لأنها كانت أبعد قليلا مما تصله أيديهم!..

على الملك أن يكون حاسما في هذا الموضوع، ويوصي نفسه بصرامة أمام مرآته: الحلم مهنة ذوي الأيدي القصيرة!... ويشمر على ساعد الجد ويمضي مفتوح العينين إلى ما تصله يده...

لم يكن أبدا هارون الرشيد كما قلت سابقا، وهو ملك جليل لا يذكر التاريخ أنه حلم مرة، ليخاطب سحابة عابرة: شرقي أو غربي... واذهبي أينما شئت فسيأتيني خراجك!... لولا أن يده كانت تصل حدود الصين...

ألم أقل في السابق بأنني تعاملت ككل ملك جاد يريد عرشا بطريقة مشروعة: تحويل الحلم إلى لعبة ممكنة، وتحويل اللعبة إلى خطر محدق؟! تلك نظرية قيام وسقوط الممالك في كل العصور... يجلس الملك إلى نفسه ويقرر: علي اليوم اختراع حلم جيد، فالرعايا زهقين من ثقل الضرائب وقسوة الملك؟ وعلى الحلم أن يكون داميا كصناعة حكومة في مترين مربعين أو اختراع عائلة من العدم... سيكون الحلم مثل لعبة كبرى أو ضحكة كبرى...

صحيح، من المهم جدا أن يكون الملك صانعا جيدا للأحلام، لكن ليس من أجل غذائه هو بل من أجل غذاء رعاياه... الرعايا بحكم وضعهم البائس يحتاجون إلى الكثير من الحلم للبقاء على قيد الحياة، ومن واجب الملك أن يؤجج أحلامهم كي يحافظ عليهم كدافعي ضرائب إلى زمن طويل...

لكن الملك عليه أن لا يصدق الأحلام التي يصنعها ولا أن يتصالح معها أبدا...

الحلم مخادع، مخاتل، يزين للإنسان أشياء غير واقعية، ويوهمه بكسب أشياء ليست في متناول يده، ويرفعه وهميا أعلى من واقعه البائس...

الحلم ليس مجرد سراب، كما تعودنا أن نقول، إنه بالنسبة للملك ماء مالح كلما شرب منه ليروي ظمأه كلما ازداد عطشا...

إنني أكاد أقول أن أي حلم، حتى ولو كان على شكل امرأة جميلة، سيجعل من الملك إنسانا عاديا، وبالتالي لا يثر حتى شهية المرأة التي يحلم بها...

لقد تعلمت في الماضي حكمة لا يمكن تكذيبها: الأحلام مثل الخصوم الطيبين حالما يأتمن الملك جانبهم يخادعونه ويطلقون عليه النار!..

إنني أشجع الملوك القادمين أن يكونوا مثل الأطالسة الذين تخيلهم هيرودوت، ينامون وعيونهم مفتوحة... كي لا تخدع الأحلام أيديهم الطويلة أبدا...

*

13

الآن وقد أحطت مملكتي بما يكفي من الحرس ومن العبث، علي أن أجلس قليلا إلى نفسي أمام مرآة نفسي، وأتحدث قليلا عن نفسي إلى نفسي...أنا الآن أذهب دون خجل إلى خاتمتي بما يكفي من مال وراحة ضمير...

صحيح، حين يصل الرجل إلى خريفه يكفُّ عن النظر في المرآة لتلافي رؤية تجاعيده، والأسى على نعومة قبضته، لكن تجاعيدي كتجاعيد الأسد تزيدني هيبة ورهبة...

لقد وفيت بقسمي ذاك الذي أقسمته آلاف المرات وأنا أمشي آلاف الكيلومترات في ذلك الجحر تحت دار العدالة: سأجعل من هذا البلد قفصا مساحته مترين مربعين!.. وقد فعلت...اسست مملكة في حجم مسدس... ونصبت حكومة في ماخور... واخترعت عائلة من غبار السذاجة... وأخيرا قصفت كل بارقة أمل في رؤوسكم الشعثاء...

أعرف أنه من الصعب تفهمي، لكنني لا أكتب كل هذا كي يفهمني أحد... أكتب فقط كي اقبض على حدود مملكتي في يدي، وأراها من كل أطرافها وأحداثها مسكوبة، ربما، في مترين مربعين من الورق،، تماما كما قبضتْ تلك الفكرة الجهنمية التي

اسمها الهيلينية بمؤسساتها الفكرية والاجتماعية على صورة الاسكندر العظيمة، وإلا كان الورثة الجشعون الذين تقاسموا مملكته بعده قد محوها من ثلثي العالم القديم...

صحيح أنني قلت دائما بأنني لست معنيا بالتاريخ، أنا هنا بينكم على قيد الحياة - شكرا للمصادفة السعيدة - وبعدي فلتنمحي كتب التاريخ!..

بالطبع الملك ليس ماضيه... الملك أعماله! وحين تصبح هذه الأعمال ماض عليه أن يشرع في كتابة سيرة حياته... ويفتح باب النجدة متهيئا للخروج على عجل...

لقد كتبت الأحداث هكذا دون تسلسل ولا ترابط، كمن يكتب لنفسه كي يبصر نفسه بشكل أفضل... فلم تكن مهمتي كتابة عمل أدبي، ولا حتى التأريخ لسيرة حياة أحد عتاة الملوك، كما ستصفونه فيما بعد، وإنما رغبتي هي، كما قلت سابقا، أريد بكل بساطة أن أجمع أطراف مملكتي في يدي، وأن ألمس حدودها، وأحدد بافتخار الطرق الجهنمية التي حكمتها بها. وأخيرا رؤية مدى ما تراه يدي!..

صحيح أنني تركت بعض الأحداث وبعض الأشخاص دون تمحيص كبير، واختصرت أحيانا محطات من حياتي عن قصد، ذلك أنها بالنسبة للملك، لا تستحق سوى ما يوليها هو من مساحة تفكيره.

الملك هو فكره... وباقي الحياة مجرد تفاصيل...

إنني لا أعرف أبدا ماذا أفعل بمجد تليد يثقل كاهل زعماء في قبورهم ... قلت سابقا أنني لست باحثا عن المجد، أنا باحث عن المال... وقد أصبحت قامتي الآن كقامات الأطالسة الذين

يصفهم هيرودوت بأنهم يصطادون السمك بأيديهم من أعماق البحر ويشوونه مباشرة على الشمس...

إن القليلين يتذكرون بيتي هوميروس : " ليس من اللائق، وليس من الكياسة للرجل الحكيم الذي يحمل مسؤولية شعبه وغيرها من الهموم الكثيرة، أن يبقى نائما الليل كله"!...

وقد اخترت من جهتي المكان الأقل إضاءة، ولبست الوجوه الأكثر غرابة، واخترت الهدف الوحيد القاتل في الحياة: المال!... واعتبرت كل ذلك لعبة، مجرد لعبة...

صحيح أنها لعبة خطرة قد تسرق النوم من العين، فيها مكائد وجثث وأحلام تتجندل على الطرقات، ولكنها تبقى لعبة... مجرد لعبة... تستحق فقط ما يكفي من السهر والجدية للانتصار فيها...

*

سيتساءل الكثير من رعاياي الأعزاء عن ماضي... من أين جئت؟ وكيف كبرت هكذا فجأة وسقطت على رؤوسهم كقطعة من السماء؟ وكيف دربت أصابعي على رؤيتهم في الظلام؟ وكيف توجت نفسي على مخيلاتهم ولياليهم الآرقة؟... إلى ما هنالك من هذه الأسئلة المخيبة للآمال...

أستطيع أن أجيب مثلا، أنني جئت هكذا كمعجزة، كلعبة ساحر ماهر، كمصيبة لا يمكن تلافيها!؟ وهذا إرضاء لغرور الحكاية فقط... أما الحقيقة العادية والبسيطة فهي أنني، أيها الأنذال الرائعين، من مواليد مخيلاتكم المجهدة... من مواليد عبثكم وتفاهتكم وعيونكم التي تعمى عن رؤية الأوراق النقدية المرمية في طرقات نهاركم...

تريدون صورة شمسية لي... إقرأوا إذن صورتي المجازية من كتاب تاريخ قديم: كان للاسكندر شعر أسود، وكانت عينه

اليسرى زرقاء، في حين كانت اليمنى سوداء وذات جفن مرتخ، وكانت أسنانه حادة مثل المخالب، وكان يحدق بنظره كما يفعل الأسد!؟

ماذا أضيف لكم من معلومات إذا قلت لكم مثلا أنني أضعت بضع سنوات ذاهبا آيبا من المدرسة كما يليق بطفل شيطاني، وحين تأكدت من لا جدوى ذلك أصبحت أذهب وأجيء في الشوارع بدون جدوى... دخنت الحشيش وشربت الخمر الرديء وسرقت مصروف أبناء الجيران من جيوبهم الداخلية..ايضا بدون جدوى!..

جئت العالم مضرجا بخطيئة لست مرتكبها. ولدت في مكان غير محدد ومن أم لا أعرفها وفي تاريخ تقريبي فقط... قضيت طفولتي كلها بدون أعياد ميلاد ولا مناسبات عائلية، وكبرت مفكرا بهذا الشكل: سأكبر وسأنتقم من كل هذا؟.. سأصنع أعيادا كثيرة ومناسبات على مقاسي، وأخترع عائلة وحكومة وخصوم جيدين كي ألعب بما فيه الكفاية...

لكن جاء السجن فكذب أحلامي ومنعني خمس سنوات من رؤية الشمس التي لا أحد يدفع سنتا لرؤيتها...

طفولتي أيضا كانت عادية: عندما كان الأطفال يلعبون، كانت تلك التي تدعي أنها أمي تغلق علي الغرفة وتحشر في رأسي عنوة وصاياها القديمة، وبعض الشذرات من ألف ليلة وليلة وتاريخ هيرودوت الخرافي... قاسمة بأغلظ الإيمان أني سأدرس الطب لمعالجة آلام مفاصلها الدائم!؟ وكنت أقسم وأنا أقلب الصفحات بامتعاض: سألعب كثيرا... حين أكبر وأصبح قادرا على ضربها... سألعب كثيرا!؟...

ويوما بعد يوم كان اللعب يأخذ في تفكيري طابع الجدية. ففي كل مرة لعبت فيها مع زملائي أهزمهم. لم أكن أبحث عن الانتصار بل عن هزيمة خصمي!... وحين كانوا يطرون ذكائي وقوتي كنت أضحك في سري: اللعب لا يحتاج سوى للجدية الكافية!..

الألعاب الشيطانية بالنسبة لي تعبر عن جدية الرجل أكثر من الألعاب العادية!.. الألعاب العادية تصلح للأطفال وللمعتوهين فقط!.. أما الرجل فقد يلعب مع زملائه في المدرسة ليأخذ منهم مصروف جيوبهم، ويستطيع أن يبيع لأحدهم محفظة نظيفة مثلا تشبه محفظته ثم يتفرج على المعركة بين التلميذين حول محفظة لم تكن معروضة للبيع منذ قليل... ويسرق الفاكهة من بستان العم كعوان خلف المقهى ثم يتفرج عليه فيما بعد يبول على جيرانه ويهددهم بمسدسه المنتصب كعضو حمار... إنها مجرد لعبة...

المسألة فقط هي مع من تلعب؟

كانت لعبة خطرة لكنها ممكنة... خمسون سنة أزن وأقارن حياتي بمماتي وسط هذه الحثالة التي ولدت فيها غصبا عني، وتعلمت فيها غصبا عني كيف يتساوى الموت والحياة لدى بشر لا يعرفون إن كانوا موتى أو أحياء...

*

صحيح، أنا أقول دائما بسخرية أنني من مواليد برج العبث، وبعض الناس يلومونني على الانفراد بهذا البرج غير الفلكي، بل أن بعضهم حين رأى مملكتي تمتد من الماء إلى الماء اقترح علي تسمية البرج ببرج الملك، لكنني لا أرى اختلافا كبيرا في التسميات...

إن الذي ينظر بحصافة إلى السماء التي تحك رؤوسنا سيكشف دون شك أن الأبراج فيها ليست هي التي تحدد أقدار البشر وإنما الأسلحة التي يتأبطونها...

الدرس الكبير الذي يتعلمه الرجل في الشوارع السفلية لهذه المدينة هو التالي: إذا لم يكن الرجل خبيثا ومخادعا فمن الأفضل أن يذهب إلى المساجد ككل الناس الطيبين...

وكانت نظرية الكولونيل محيرقة معروفة: خاتل كالثعلب، وانقض كالنمر، وكل ضحاياك كالضبع ؟!

بل أن عبدول البارمان كان يضع بين مبادئه في حياة النذل التي كان يعيشها قاعدة شهيرة: كلما فتحت حانة، كلما أنقصت صفا من وراء إمام المسجد الذي تطاردنا تعزيراته وعظاته...

لقد أدنت وتابعت وخاصمت في الماضي كل الوصايا التي تثقل كاهل الناس، لكنني أجدني أحيانا في حاجة إلى إزجاء توصية مفيدة للمرشحين للملك: انشروا التفاهة والشراهة بين الشعوب وهي تتكفل برفعكم على أكتافها... الشعوب المرتاحة في الغالب تقلق زعماءها براحتها... والنعمة تبطر الطماعين...

لقد فهمت مبكرا أن البشر لا شيء!؟.

منذ بدء الخليقة ولد الملايين ومات الملايين باليأس والسنّ والمرض والحروب التي لم يعلنوها... لكن التاريخ لم يحفظ لنا سوى سير اللصوص الكبار وبعض السذج من الشعراء والقديسين...

حتى اللصوص كان يقوم بترتيبهم حسب شطارتهم، من يسرق بلدانا يسميه التاريخ فاتحا عظيما، ومن يسطو على دولة سيكون حاكما زعيما... ومن يقبض على نوايا أمة بالنار والحديد يسمى

بطلا... أما اللصوص الصغار فالبعض يسمى رئيسا أو حاكما عاما أو مديرا لشؤون الأمة...

كلها مجرد تسميات بالنسبة لي، فلم يحدث أبدا أنني فهمت كيف جرجر هولاكو نصف شعوب آسيا إلى بغداد في القرن السابع ميلادي لولا مخيلة الذهب والبذخ التي ابتنت قصور بغداد في ذاكرة ألف ليلة وليلة... كان قوة استيلاء عظيمة... يدمر كل ما يجده في طريقه من أجل تكديس أموال المدن المهزومة... ولدي دليل قاصم على ذلك: لم يستطع في مروره الكاسح والمخرب لمدة عشرين سنة أن يترك أثرا واحدا من مواهبه التي يدعيها في الأراضي التي مر عليها سوى موهبة واحدة لا شفاء منها هي اكتناز الذهب!.. والله وحده يعلم عدد الجثث التي رصف بها طريق شهواته.

الجثث ليست هي المشكلة... إنها في النهاية ليست سوى جثث!.. صحيح أنها جثث كائنات بشرية انطفأت فيها الحياة الضاجة بالفرح والأحلام... لكنها جثث... وكفى!..

الملك لا يرى إلا نفسه في المرآة وهو يفكر هكذا: هناك أوقات عصيبة عليه أن يحسب لها ألف حساب، فمثلما تمر بعض البنوك بمشاكل سيولة نقدية تمر الخزائن الملكية ببعض النقص والعوز نتيجة الصرف الدائم على إفساد الرجال... وعلى الملك أن يجد مصادر الهام لا تخونه يعود مرة بعد المرة إلى أرففها لاختيار ما يصلح من مكائدها لحماية رصيده من الترهل وبالتالي رفع معنوياته...

معنويات الملك مثل خزائنه من المهام الجليلة التي عليه صيانتها وترميمها... وبعدها تأتي الجثث وكتب التاريخ الممجدة...

إنني لا أعرف كيف أصف لكم هذه المدينة التي وضعتها كدرهم في قبضتي... عليكم أن تذهبوا إلى أعاليها كي تعرفوها بعمق، وتروا مراحيضها، كما تقول الحاجة قمير...

صحيح، بعض المدن تعرف من أسفلها... يلمسها الإنسان في شوارعها الشعبية، في حاراتها وأسواقها وحدائقها... هناك حيث تتحرك الحياة الحقيقية الدامية والجميلة، وتتراكم القرون والتجارب على الخطى المتعبة التي تشق طريق الحياة في الحمإ بتعنت وإصرار...

وصحيح أيضا أن بعض المدن لها روائحها الخاصة، وأخرى لها لغاتها التي تتحدث بها إلى قلبك، وأخرى لها سحر سري يجذب إليها البشر من أقاص الأرض... كل مدينة لها فتنتها وبهاؤها الذي يبقى في قلبك...

لكن هذه المدينة تبدو وكأنها مركولة، مقلوبة رأسا على عقب، واقفة على رأسها بدل أقدامها... لها كل ميزات السحر والحياة، لكنها تبدو مهملة كأرملة لم تجد من يتزوجها... كل شيء فيها لعوب وحلوب، لكن قلبها متيبس وحرون!..

وكان علي كي أسبيها أن أتأملها طويلا وهي تلعب أمامي صاعدة هابطة، واقفة أو منحنية، طروب كعاهرة أو حزينة كثكلى... اثنان وعشرون سنة أنظر إليها فقط... أنظر بأصابعي التي تتدرب على التسلل في الظلام إلى مخابئها وأسرارها وغابات العلاقات الشائكة التي تحيط بها، والعواطف البشرية الصغيرة التي تعصف في شوارعها... والأنذال الذين يركبون موجتها فتصعد بهم عاليا...

مدينة كاملة تتحرك بين يدي عصابات النهب والسلب ذوي الثراء الفاحش، وبيوت المواعيد الفاجرة وفنادق عليها كل مظاهر الفخامة والاحترام... إنها مدينة أخرى لا تراها وأنت

تقف في الشوارع الصغيرة المحاذية لهذه الجغرافيا، حيث الناس العاديون سائحون في الشوارع دون هدف: البطالون والمتسولون والقراصنة الصغار وباعة السمك وفتيات الداعرة غير المنظمة، وأحيانا بعض العمال الفخورون بوطنيتهم، وبحارة يزهون بملابسهم الرسمية، وأصحاب دكاكين صغيرة قانعون بمصروف الجيب، وأغلبية السذج الذين يؤمنون فقط بأن دوام الحال من المحال!!

تلك الجغرافيا الرثة المهملة التي لا تراها من موقعك فيها سوى كخيوط الأماني التي تنسجها العناكب في الزوايا الخلفية، البعيدة والمعتمة لاصطياد الذباب والحشرات...

أما المدينة اللعوب فإنها تسكن فنادق خمس نجوم وفيلات جيدة التصميم، وأرصدة فلكية، وغطرسة ذات ملابس سموكينغ... والتي تبدو فيها هذه الضواحي مجرد حثالة لتزيينها بالبؤس كما ينبغي لدولة عربية في حاجة للشفقة وتوزيع الصدقات الدولية وبعض المشاكل الصغيرة الأبدية...

إنني لا أدري كيف كنت أفكر دائما أن هذه المدينة ولدت من تلك السيدة العجوز التي كانت تدَّعي أنها أمي... كانت تشبهها إلى حد كبير... كانت مثلها وكأنها فص منها... وكأنها ابنتها!..

تلك التي تدَّعي أنها أمي، سيدة مومسات الجزائر... كانت لا تفتح داعرة بيتها لرجل دون موافقتها، ولا ينتصب رجل دون إذنها... كانت عشيقة بعض شخصيات الدولة ومديرة لياليهم الآبقة... لكنها سيدة في هيئتها وهيبتها... ربت عشرات المتروكين مثلي على أبواب المساجد والكنائس وصرفت أموال الدولة على مراكز الأيتام والجمعيات الخيرية التي يخترعها صناع السيئات طلبا للمغفرة الإلهية...

كانت معجبة بصلفي ووقاحتي إلى حد أنها قالت مرة لقائد إحدى القوات العسكرية: أحس أن هذا الطفل قادر على ضربي حد الموت!؟.

كانت في الغالب تربي البنات فقط في حارتها التي بها ألف غرفة وغرفة، على يدها يتعلمن كيف يطعمن الرجال من أعضائهم بدل أفواههم... وكان إعجاب رئيس حكومة سابق بفلسفتها الداعرة كاف كي يكتب تلك الحارة على اسمها، ويزوِّدها بنياشين ومراسيم رئاسية لحمايتها من خصومها، ومن الاحتجاجات الاجتماعية غير المنتظرة...

وحين جيء بي إليها قالت لها قمير وكانت صبية جميلة من صبياتها المقربات، أنني أستطيع أن آكل ثورا كاملا وأضرب الجدار بلكمة فأخترقه. نظرت إلي بدهشة: هذا القرادة؟! ومدت لي يدها لأقبلها لكنني أخذتها في يدي حتى سمعت قضيض عظام سلامياتها ونفرت دمعة من عينيها!! وقالت: أقبله كحارس شخصي لي... يغسل أقدامي قبل النوم... ويضرب المتعنترين علي... وأقوم مقابل ذلك بإطعامه... اتفقنا... اتفقنا...

هناك تعلمت ما المرأة؟ وأخرجتها من مملكتي...

تعلمت أن مشكلة المرأة ليس من يضاجعها، وإنما من يستثيرها! إن الرجل يمكن أن يفتح فخذيها بالقوة، وقد تفتح له هي فخذيها شفقة عليه من عواطفه الملتهبة، وربما تمنح نفسها له مقابل شيء ما يمنحه لها، سواء مالا أو حماية أو شهوة أو... لكن الرجل الذي تراه حين تغمض عينيها وتتنهد هو الرجل الذي يستثير خيالها...

إثارة خيال المرأة هو مركز كون المرأة... لذلك تكتفي أغلب النساء بقضم أحلامهن كتفاحة حواء حتى تطرد من الجنة!

لكنني بالمقابل تعلمت شيئا ثمينا آخر سيحدد مصيري: الرجال هنا ليسوا بسلطتهم ولا بأموالهم وإنما بفحولتهم... إذا فشل الرجل أمام مومس سيكون فشل حياته وسينتهي إلى الخروج من الجنة مركولا بأحذية وأعقاب البنات...

كانت تلك مقولتها الشهيرة: إذا خرج الرجال من سن الفحولة لم يبق فيهم ما يستحق الاحترام...

*

الآن، وأنا أبحث عن باب الخروج من سن الفحولة عن سابق إصرار وترصد، أجدني مدينا للكثيرين حولي بتواطئهم وخساستهم وصمتهم أحيانا... شكرا لكم جميعا أيها الأنذال الرائعون!..

لقد وعدتكم منذ صفحات بعيدة بأني سأترك وصية قبل خروجي من الباب الخلفي للحياة... قلت لكم: لن أسمح لأحد أن يرث عرشي من بعدي ويستغل طيبة رعاياي الأعزاء... سأترك كرسي الملك في الساحة العامة وعليه يدي، هذه اليد الطويلة التي اشتهرت بها بينكم، والتي زهقت بها بعض الأرواح وبعض الأرزاق وبعض الخصي... فإذا ما اختلفتم وتعاركتم حول تفاهاتكم اليومية كالعادة، تقاضوا عندها وارضوا بحكمها... إلى أن يجيئكم ذات يوم فاسد كبير مثلي فيلبسها ويبدأ في ضربكم على مؤخراتهم السمينة...

وصيتي لكم أيها الأنذال القادمون: الملك الحق لا يرضى سوى بملك حق يرث عرشه!

دعوني أقل لكم أخيرا فيما يشبه الاعتراف: إنني أشعر وكأنني كنت دائما هنا... ففي الكثير من الأحيان تجتاحني تلك الفكرة الرهيبة التي تشعرني أنني أقف خارج الزمن، وأن أجيالا

وأجيالا تولد على يدي وتموت على يدي، وكأنني هنا منذ قرون، منذ القرن الخامس أو السادس عشر، متعاليا في أزمنتي، أعبر السنين والأجيال بحرية مطلقة... وكأنني ولدت مع ميلاد هذه المدينة الحديثة... كنت هنا في بنائها... في أساسها... في هواجسها الصغيرة البائسة... أعبر العصور والأجيال بحرية مطلقة... أعيش دون غضاضة، وأحكم دون غضاضة... أنا هنا... بفضلي أيها الأوغاد تجدون ما يكفي من الحكايات لعلف أشداقكم... وبفضلي تعرفون حجم جثثكم... كلما ولد أحدكم في هذا المكان أول ما يفتح عليه عينيه هو أنا، وأول هواء يتنفسه يتنفسه من كرمي، وأول مصروف جيب يدفعه في حياته يدفعه لخزينتي... يكبر مواطنا سعيدا إذا كان من فئة دافعي الضرائب، وشقيا إذا شق عصا الطاعة...

أنا ذاهب ... أيها الناس، أنا ذاهب بعد قليل... ربما بعد جيل أو جيلين... سأذهب... أذهب وحيدا كما جئت وحيدا... لن أترك فيكم ملكا يرث سيئاتي وعبثي، رحمة بكم أيها الأوغاد الجبناء... سأترك هذه الساحة التي قتلت فيها بعضكم غيلة، وأقسرت بعضكم فيها على دفع الضرائب غصبا عنه، ونسيت بعضكم في جيبي حتى تعفن!... سأترك مسدسي منتصبا كعضو حمار هناك في أعلى الساحة، وأضع حيث وضعت خصيتي دائما تلك اليد التي كنتم تحتكمون إليها وتركعون تحت وطأتها، لتتولى إدارة شؤونكم... وتقاضي بينكم بالعدل...

تعالوا إلي يا شعبي العزيز... سأمنحكم فرصة أخيرة لرؤيتي عن قرب: سأخترع من أجلكم حفلة موتي كي أخرج من المشهد نظيفا معافى... ها أنا قد هيأت لكم الركح المسرحي كما ينبغي لملك محاط بالحزن والرهبة... وسمحت للأشداق الكبيرة أن تزرع ساحة موته بما شاءت من حكايات مبتدعة...

كان الجميع يقف على بعد عشرة أمتار وراء سياج الحرس الخاص وجدار الأزهار الذي أقمته خصيصا لمنع المتطفلين من الاقتراب مني ورؤية نصف الإغماضة التي أتفرج من خلالها ساخرا على دموعهم اللامعة كسراب...

لا تهمني الآن إن كانت الدموع مادة جيدة للتسلية... لكن الدموع التي سفحتموها على تابوتي كانت براقة وخاطفة كشرارات الألعاب النارية...

أعرف أيها الأنذال الرائعين أنكم ستبنون لي قبرا من الرخام المجزع المثقل بالتعشيبات وآيات التمجيد قبل أن تجف ذكراي، ويرتفع خوفي من قلوبكم... وستنعمون علي بما شئتم من الألقاب والمناصب والميزات التي كنت أنا نفسي لا أعرفها في نفسي... أسامحكم... وشكرا لكم...

أعرف أنكم ستزورن قبري قليلا... وتنسوني قليلا... لكن الدنيا أحوال... وفي كل الأحوال سيتحول قبري هذا الذي اخترعته من أجلكم، بعد جيل أو جيلين إلى مزار ولي صالح كعشرات المزارات في هذه المدينة التي لا نعرف ساكنيها... وسأواصل من قبري إدارة عواطفكم وشؤونكم يا رعاياي وخصومي الألداء بنفس الحماس الذي أدرته بها في حياتي!! شكرا لي...

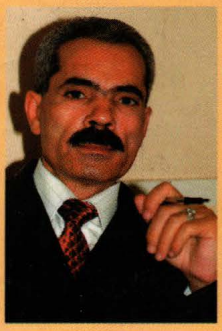

عبد العزيز غرمول، من الجيل الجديد للرواية الجزائرية، جيل ما بعد الطاهر وطار ورشيد بوجدرة ومحمد ذيب، منذ روايته الأولى"مقامة ليلية" سنة 1993 تفرد بموضوعاته وأسلوبه حيث بدا وكأنه ينشق عنوة عن الرواية السائدة، ويؤسس لنفسه طريقا مختلفا بلوره شيئا فشيئا في قصصه" رسول المطر سنة 1994" و"سماء الجزائر البيضاء سنة 1995" التي شكلت بعض قصصها روايات مكثفه باهرة.

"كنت ملك الجزائر وما والاها من الضواحي. أحكم مملكتي بالقوة والعبث. أمشي في أسواقها مختالا، على رأسي تاجي وفي يدي صولجاني، محاطا بحرسي، اثنان يسيران أمامي لشق طريقي في حمإ الحياة، واثنان ورائي لحمايتي من ضغينة الحساد.. يتدافع الناس في الشوارع للتبرك بتقبيل يدي، وتفرش لي الطريق بالعطايا والدعوات... وحين ألقي مرساتي في حانة أو مطعم تتسابق رعيتي لدفع حاجتي.. كنت أغناهم بقوتي وعبثي، ولكنهم يدفعون ثمن رغباتي عن طيب خاطر"..

في هذه الرواية "زعيم الأقلية الساحقة" التي نالت حماس قرائها حتى قبل نشرها، يرسخ عبد العزيز غرمول مكانته تلك كروائي متميز، قادر على إدهاشنا وإمتاعنا وهو يقوم بتعرية المسكوت عنه فينا، وقادر بشكل خاص على ركوب أصعب الأساليب الروائية وتطويعها بمهارة لمعالجة قضايا خطيرة بأسلوب ذكي وبسيط...

مكتبة نوميديا

دار القصبة للنشر

تدمك : 0 - 534 - 64 - 9961